

ما لا يثبت بدارك ولا قطار
الدرج من يدني ايسر
د. محمد عيسى

د. محمد الجبور
د. محمد الجبور

جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا
فرع الفقه والأصول

مَنْعُ الْمَوَالِغِ

عَنْ

مَجْمُوعِ الْجَوَالِغِ

فِي أَصُولِ الْفِقْهِ

تأليف القاضي الإمام تاج الدين السبكي (٧٢٨ - ٧٧١ هـ)
«تحقيق ودراسة»

إعداد

سعيد بن علي محمد الحريز

رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في أصول الفقه

بإشراف فضيلة الأستاذ الدكتور

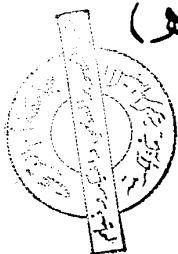
محمد عبد الرحمن علي

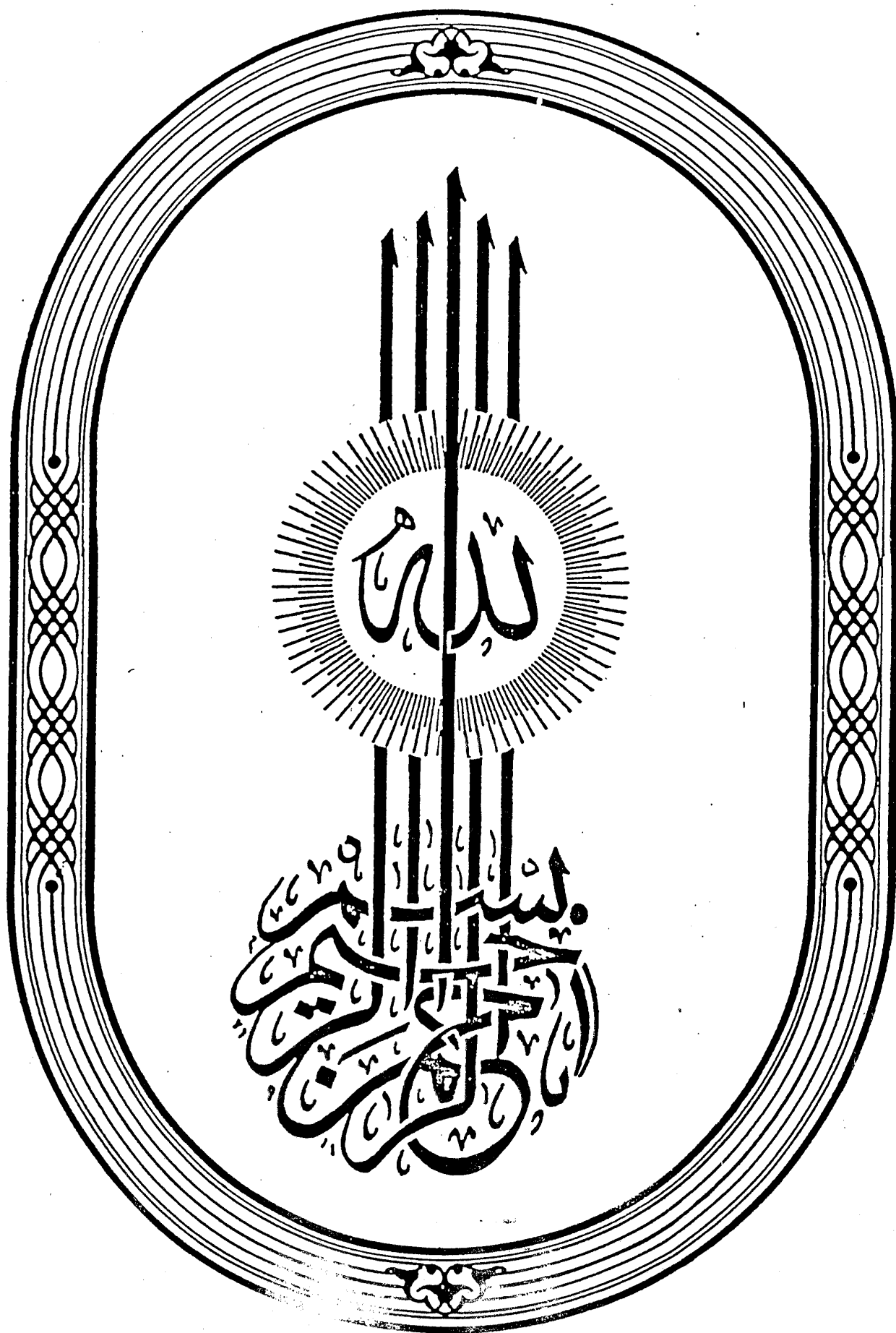
القسم الأدبي

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٦٢٥





شكر وتقدير

أحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، واستعينك
استعانة من لا حول ولا قوة له إلا بك، وأشكرك الشكر الجزيل على ما أوليتني
من نعمائك وآلائك، لا إله غيرك ولا رب سواك، أنت أهل الفضل والثناء
سبحانك لا نحصى ثناء عليك .

وبعد ..

فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يشكر
الله من لا يشكر الناس" (١) .

واعترافا بالفضل لأهله والفعل الحسن لذويه فإنه يسرني أن أقدم
بجزيل شكرى وخالص تقديرى إلى فضيلة شيخى الدكتور محمود عبدالدايم
على ٥ الذى كان لحسن إشرافه علي ودقة متابعتة للموضوع أكبر الأثر
في نفسى فقد أعطانى من وقته وتوجيهاته ما دلى أمامى عقبات كثيرة
فله منى خالص الشكر والثناء ومن الله تعالى المثوبة والجزاء .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أقدم شكرى أيضا لكل من أفادنى من
أساتذتى وزملائى بكتاب أو إرشاد، أو أى نوع من المساعدة والنصح والتوجيه

كما أخص المسئولين فى جامعة أم القرى بكل تقدير وإكبار لقاء
ما يبذونه من حرص واهتمام فى نشر العلم والحدب على طلابه ..

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، وجعل عملنا هذا خالصا
لوجهه الكريم ومن علينا بالتوفيق والسداد، إنه جواد كريم وهو حسبنا
ونعم الوكيل .

المقدمة

الحمد لله العلي القدير العليم الخبير ، الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً^(١) وأشهد أن لا إله إلا الله الكبير المتعال ، ذو الطول لا إله إلا هو العزيز الغفار ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله البشير النذير خاتم النبيين وإمام المرسلين والقائل صلى الله عليه وسلم " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " (٢) .

اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجـد منك الجد (٣) .

" ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب " (٤) .

أما بعد ...

فإن الاسلام هو دين الله الخالد الذي فيه الهدى والنور لمتاهات البشرية الحائرة اليوم ، وهو الدين الحق الذي لا يقبل الله من الخلق ديناً سواه : " ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " (٥) ، ولما كان دين الاسلام بهذه المثابة فإن شرائعه العظيمة وأحكامه المتزنة قد جاءت من الشمول بحيث تنتظم أمور الحياة كافة في المعاش والمعاد ، وفي العاجل والآجل ، فلا تخلو واقعة من وقائع الحياة المتكاثرة عن حكم لله تعالى فيها عرفه من عرفه وجهله من

(١) سورة الكهف آية (١) .

(٢) رواه البخارى ١٩١ / ٢

(٣) رواه البخارى ١٠٣ / ٤

(٤) سورة آل عمران آية (٨) .

(٥) سورة آل عمران آية (٨٥) .

جهله وهذا أمر مقطوع به ، قال تعالى : " ما فرطنا في الكتاب من شيء " (١)
وقال تعالى : " تبيننا لكل شيء " (٢) .

وقال الشافعي رحمه الله : " وليست تنزل بأحد في الدين نازلة
إلا وفي كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها " (٣) .

ولما كان علم أصول الفقه هو العلم المهيء لاستنباط الأحكام ،
والركن الأساسي لبلوغ درجة الاجتهاد ، وتبيين الحلال من الحرام ، بما
يمتاز به من تعديد لقواعد الشرع وقضايا الألفاظ المتداولة من منطق
ومفهوم ، ومطلق ومقيد ، وعام وخاص ، ومجمل ومبين ، وحقيقة ومجاز ، وغير ذلك من
مدلولات الكلام العربي الذي نزل به الوحي .

وكانت بحوثه إنما تنصب على الكتاب والسنة والاجماع والقياس
وما يتعلق بها ويرجع إليها من المعاني والدلالات . كانت أهميته
عظيمة ورتبته بين سائر العلوم متقدمة .

إذ أن بنيانه قد قام على النصوص السمعية والحقائق العقلية
فارتفع بذلك مكانه وعز سلطانه .

ولذلك فإن مسائله المقررة وقواعده المحررة تؤخذ مسلمة عند
كثير من الناظرين ، لا اعتقادهم أن مسائل هذا الفن هي قواعد مؤسسية
على الحق المبين والنهج القويم ، لكونها مربوطة بأدلة علمية من المنقول
والمعقول ، وأشرف العلوم كما يذكر الإمام الغزالي رحمه الله : " ما زدوج
فيه العقل والسمع ، واصطحب فيها لرأى والشرع ، وعلم أصول الفقه من هذا
القبيل فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل ، فلا هو تصرف

(١) سورة الانعام آية (٣٨) .

(٢) سورة النحل آية (٨٩) .

(٣) الرسالة فقرة ٤٨ .

بمحض العقول، بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد، الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد" (١)،

وقد برز في هذا العلم المبارك علماء جهابذة ألفوا فيه فأبدعوا وشرحوا فأطابوا وأطنبوا، واختصروا فأوجزوا وحرروا، على اختلاف طرائقهم ومذاهبهم في ذلك، وكان من أفاضل هؤلاء العلماء الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله، فهو قعيد في هذا الفن ثقة ثبت راسخ القدم فيه وقد ألف فيه مؤلفات بديعة فائقة، وكان أجود مؤلفاته كتاب "جمع الجوامع" فهو كتاب مختصر صغير الحجم بين كتب الأصول لكنه فريد في بابه، مشتمل على كثير من الدلائل مع التحقيق والتدقيق والترتيب والتهذيب، ينخرط مع مختصر ابن الحاجب في سلك واحد، وإن كانت عبارته أوفى وأشرق، من عبارة ابن الحاجب.

وبالجملة فهو أحسن ما صنف في هذا الفن وأجمعه وأنفعه، مع سهولة في العبارة وسبكها في قالب بديع، يدخل القلوب ويبهج النفوس، ويرمي المعنى من أمد بعيد.

ولقد ظل هذا الكتاب لفترة طويلة من الزمان تتلقفه فئات الناس بأعنة الإعجاب شرقا وغربا أمة بعد أمة وكان منذ صدوره بهذه المنزلة العظيمة لدى الخاصة والعامة، فقد ذكر المصنف أنه دار على السنة الناس في زمانه وصار في كل محفل كمضغة تلوكها الأشداق وتتردد تردد الأنفاس" (٢).

وكتاب جليل القدر كهذا لا بد وأن تتناوشه سهام النقاد وتتفحصه

(١) انظر مقدمة المستصفى ٣/١.

(٢) انظر قسم التحقيق ص ١٢.

قرايح العلماء البزل ، وتتداعى عليه الدلاء من كل حذب ، ثم تصطرع فيه أنظار الناس وتتمكن الحيرة من أفهامهم نحوه ، فيذهبون كل مذهب ، فبعضهم يرى فيه إشكالات وعقدا تحتاج فى نظره إلى إيضاح وتحريير ، وآخر يجد فيه زيادات على غيره ، لا يستسيغ إثباتها فيه ، بل هى عنده نوع من الحشو الذى لا يليق .

ومنهم من تصعب عليه عبارته ، وتدق على ذهنه ألفاظه ، فلا يصل إليها فهمه ، ولا ينطلق بها لسانه ، لذلك كله فقد وردت عليه أسئلة شتى على مختلف نصوصه ومشكلاته ، بعضها من أقران المؤلف ، وبعضها من تلاميذ ، وبعضها من سائر علماء عصره ، فأجاب عن تلك الأسئلة جميعها وأماط اللثام عن مكنون عبارته وأوضحها للكافة أتم إيضاح ، بأسلوب رشيق وبيان هديع .
ضمن كتابنا هذا ، وقصد بتلك الإجابات أن تكون كالشرح لمشكل الكتاب (١) فإن هذا المختصر لا يتأتى فهمه بسهولة لكل أحد ، ولا يلين لكل طالب ، بل لا يدريه ويدرك شأوه ، إلا أولو النظر من حذاق هذا الفن وواردية (٢)

(١) انظر قسم التحقيق ص ٢٣٠ .

(٢) قال صاحب الآيات البينات ١٢ / ٣ فى معرض رده على الكوراني شارح جمع الجوامع : وهو من هو : قال : إنه تصدى لشرح هذا الكتاب وهو لم يعرف معانيه ، ولم يدرك مراميها ، فكان كثيرا ما يقع فى الخطأ والزلل ، ومجافاة الصواب .

ثم ذكر أن من يتصدى لشرح « جمع الجوامع » ينبغي أن يكون كامل الأهلية فى الاطلاع والتدقيق ، والتفحص لكافة كتب أهل الأصول ، قديمها ومتأخرها ، لترتاض نفسه فى ذلك ، ويقف على مقاصد هذا العلم .

ومن لم يكن كذلك فإنه يخطئ من حيث يريد الصواب ، ويسئ من حيث يريد الإحسان . . .

وهنا أقول : إن كتاب " جمع الجوامع " وإن كنت قد وصفته بما هو أهله فإنه كغيره من كتب البشريوه خذ من قوله ويترك فليس هو مبرأ عن الخطاء ولقد نفع الله الأمة بكتب طارت كل المطار ، وما فيها إلا ما وقع فيه عيب ، وعرف منه غلط بغير شك ولا ريب . فلا يوجد كتاب في الدنيا سلم إلى مؤلفه فيه ولم يتعقبه بالتتبع من يليه :

من ذا الذى ما ساء قط . . . ومن له الحسنى فقط
والكامل الله فى ذات وفى صفة . . . والناقص الذات لم يكمل لعمل

وقد وفر الله الكريم دواعى العلماء على الاشتغال بهذا الكتاب أيما شغل شرحاً ونظماً وحفظاً ، فذكر له صاحب كشف الظنون (١) أكثر من عشرين شرحاً وعدداً كبيراً من الحواشي والمنظومات .
وهكذا تداولت عليه قرائح العلماء وتبارت فى الانتساب إليه ، وما ذاك إلا لجلالته وعظيم فائدته وحسن نية مؤلفه رحمه الله .
وأما كتاب (منع الموانع) الذى هو موضع التحقيق فلا نطيل الحديث عنه هنا إذ سيأتى له فصل يخصه فى محله من البحث .
وبالجملة فما قيل فى أصله فهو مقول فيه بطريق اللزوم إذ هما من مشكاة واحدة ، وإن كان لكل منهما صفة من حيث البسط والاختصار ، فلكل مقام مقال .

(١) راجع كشف الظنون ١ / ٥٩٥ وما بعدها .

سبب اختيار الموضوع

إن تحقيق المخطوطات العلمية وخاصة النادرة منها يفيد المحقق فائدة علمية كبرى، ويكسبه دُرية وأناة في معالجة موضوعاتها وتحليل مشكلاتها، لأنه ملزم بالسير معها خطوة خطوة، في جميع أبواب الفن ومسائله التي تطرقها، فيطلع بذلك على قضايا العلمية المنتشرة ضمن كتاب كامل، أو جزء كبير منه، وهذا بخلاف الموضوعات الجزئية التي تنحصر في قضايا معينة لا تعدوها.

ولما كنت في مرحلة الماجستير قد أخذت أحد هذه الموضوعات الجزئية في علم الأصول، فإنني في هذه المرحلة قررت أن أُلج باب التحقيق ليتسنى لي الاطلاع على معظم أبواب هذا العلم، ولأعيش معه في قضايا ومشكلاته الممتعة والمتعبة.

ولقد لفت نظري أثناء الدراسة والاطلاع ما رأيته من إشادة العلماء بكتاب «جمع الجوامع» لابن السبكي واعتمادهم على مسائله المحررة في أكثر من كتاب، حتى إن الشيخ العطار رحمه الله يذكر أن كثيراً من علماء زمانه كانوا إذا وردت عليهم مسألة أصولية ليست في «جمع الجوامع» يقولون هذه مسألة لا أصل لها (١).

ولما علمت أن لهذا الكتاب المرموق شرحاً لمؤلفه التاج السبكي بحل غوامض ومشكلاته، ويفك عقده ومغلقاته - وإن لم يكن شرحاً شاملاً لجميع مسائله - يمت خاطرني نحو هذا الشرح، وتوجهت بعناية للبحث عنه والاطلاع عليه، وما إن وجدت منه نسخة في مركز البحث العلمي، إلا وبدأت في قرائتها حتى النهاية، وعندئذ تعاضمت في نظري قيمته العلمية،

خاصة وأنى وجدته على شكل أسئلة وأجوبة تستوعب مسائل الفن كله ،
وهذا نوع بديع من التأليف ، لانههده فى كتب الأصول ،

لذلك كله وإسهاما منى فى إثراء المكتبة الأصولية بهذا السفر
العظيم المبارك، فقد قررت من فورى أن يكون أطروحتى العلمية التى أنا
معنى بها فى هذه المرحلة من الدراسة، غير أن الكتاب فى معظمه لم
يرتب على ترتيب أصله «جمع الجوامع» وكان قد دار فى خلدى أن أقوم
أنا بهذه المهمة، ثم رأيت من الأفضل عدم ذلك لأننى خشيت أن أعتدى
على حق مؤلفه، أو أخل بوضعه الأول فصرفت عني هذا الخاطر، وأبقيت
الكتاب على وضعه السابق كما ارتضاه مؤلفه، فإن متن الكتاب حكم على
المؤلف، وحكم على عصره، وبيئته، وهى اعتبارات تاريخية لها حرمتها .

وقد قيل " الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم "

ولكنى قد وضعت جدولا فى آخر الكتاب يرشد إلى ترتيب أسئلة
« منع الموانع » وأجوبتها على حسب تسلسل عبارة الكتاب الأصل ، ليسهل على
قارى « جمع الجوامع » الرجوع إلى شرح النص المراد عند احتياجه لذلك .

خطة البحث

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في قسمين، أحدهما للدراسة والثاني للتحقيق ، ثم جاء القسم الدراسى فى تمهيد وبابين وخاتمة .

ذكرنا فى التمهيد أثر البيئة فى الشخص، وجعلنا الباب الأول فى دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية فى عصر التاج السبكي وفى ضمنه ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

فى بيان الحالة السياسية السائدة فى ذلك العصر

وتحتة ثمانية مباحث :

- المبحث الاول : فى تكوين دولة المماليك التي عاش التاج فى عهدها
- المبحث الثانى : فى قضاء التتار على الخلافة العباسية ببغداد .
- المبحث الثالث : فى الحديث عن موقعة عين جالوت
- المبحث الرابع : فى إعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة .
- المبحث الخامس : فى التصارع على السلطة عند حكام المماليك
- المبحث السادس : فى ذكر صور من هذا التصارع
- المبحث السابع : فى تشوف الناس إلى مناصب الدولة والسعى فى طلبها
- المبحث الثامن : فى موقف التاج السبكي من الأحداث السياسية فى عصره

الفصل الثانى :

فى بيان الحالة الاجتماعية والاقتصادية

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : فى طبقات المجتمع فى عصر التاج السبكي
- المبحث الثانى : فى البدع والخرافات السائدة فى ذلك العصر
- المبحث الثالث : فى الناحية الاقتصادية ،

الفصل الثالث :

فى بيان الحالة العلمية والثقافية فى عصر التاج

وتحتة ستة مباحث :

المبحث الأول : فى تصوير النشاط العلمى ومطارحة العلماء فى ذلك العصر .

المبحث الثانى : فى التدرج فى التعليم .

المبحث الثالث : فى ذكر أسباب ازدهار الحياة العلمية آنذاك .

المبحث الرابع : فى اهتمام الأمراء بالعلم والعلماء .

المبحث الخامس : فى ظهور شخصية العلماء ودورهم فى جهاد التتار

المبحث السادس : فى الكلام على التقليد والتعصب المذهبى لدى طوائف الناس .

الباب الثانى

فى دراسة حياة التاج السبكى وكتابه، والمكانة العلمية التى وصل إليها

وتحتة سبعة فصول :

الفصل الاول :

فى حياته العلمية

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : فى مولده

المبحث الثانى : فى اسمه ونسبه

المبحث الثالث : فى نشأته وطلبه للعلم

المبحث الرابع : فى عقيدته

المبحث الخامس : فى شيوخه

المبحث السادس : فى تلاميذه

المبحث السابع : فى ثناء العلماء عليه

الفصل الثاني :

في دراسة الكتاب

وفي ضمنه خمسة مباحث:

- المبحث الأول : مصطلحات المصنف في الكتاب
- المبحث الثاني : مصادر الكتاب
- المبحث الثالث : أهمية الكتاب
- المبحث الرابع : ملاحظات حول الكتاب
- المبحث الخامس : أسلوب المؤلف ومنهجه في الكتاب

الفصل الثالث :

في التعريف بكتبه الأصولية واعتداده بأرائه فيها

وتحت ثلاث مباحث :

- المبحث الأول : التعريف بكتبه الأصولية الأربعة
- المبحث الثاني : اعتداده بأرائه فيها
- المبحث الثالث : انصافه لخصومه ورجوعه إلى الحق في مواقفه

الفصل الرابع :

في مكانته العلمية والمجالات التي برز فيها وفاق .

ويشتمل على تسعة مباحث :

- المبحث الأول : ابن السبكي الأصولي
- المبحث الثاني : ابن السبكي الفقيه
- المبحث الثالث : ابن السبكي المجتهد
- المبحث الرابع : ابن السبكي المحدث
- المبحث الخامس : ابن السبكي المؤرخ
- المبحث السادس : ابن السبكي النحوي

- المبحث السابع : ابن السبكي الأديب
المبحث الثامن : ابن السبكي الشاعر
المبحث التاسع : ابن السبكي المصلح الاجتماعي
الفصل الخامس :
-

في الأعمال العلمية والمناصب التي شغلها في حياته
ويتضمن بحثين .

- المبحث الأول : في الافتاء والتدريس
المبحث الثاني : في توليه منصب القضاء والخطابة
الفصل السادس :
-

في موقفه من خصومه
والكلام على عزله عن القضاء وسجنه
وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :
المبحث الأول : في محنته الأولى
المبحث الثاني : في محنته الثانية
المبحث الثالث : في محنته الأخيرة
الفصل السابع :

في ذكر مؤلفاته ووفاته
وفيه بحثان :
المبحث الأول : في ذكر مؤلفاته وآثاره العلمية
المبحث الثاني : في وفاته

الخاتمة

أما القسم الثاني فهو قسم التحقيق وسيأتى الكلام على منهجى فيه
في مقدمة التحقيق إن شاء الله تعالى . .
واستمد من الله التوفيق والإعانة فهو نعم المولى ونعم النصير . .
وصلّى اللّهُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول

فى دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية

والعلمية فى عصر التاج السبكى

وسيكون الحديث فيه ضمن ثلاثة فصول :

الأول فى بيان الحالة السياسية

الثانى فى بيان الحالة الاجتماعية والاقتصادية

الثالث فى بيان الحالة العلمية

وتحت كل من هذه الفصول عدة مباحث . . .

الفصل الأول :

فى بيان الحالة السياسية السائدة فى ذلك العصر

وتحتة ثمانية مباحث :

المبحث الأول : فى تكوين دولة المماليك التي عاش التاج فى عهد ها

المبحث الثانى : فى قضاء التتار على الخلافة العباسية ببغداد .

المبحث الثالث : فى الحديث عن موقعة عين جالوت

المبحث الرابع : فى إعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة .

المبحث الخامس : فى التصارع على السلطة عند حكام المماليك

المبحث السادس : فى ذكر صور من هذا التصارع

المبحث السابع : فى تشوف الناس إلى مناصب الدولة والسعى فى طلبها

المبحث الثامن : فى موقف التاج السبكى من الأحداث السياسية فى عصره

تمهيد فى أثر البيئة

الانسان ابن عصره علما وفكرا وثقافة وأخلاقا وتقاليده ، فهو يعيش مشاكله وأحداثه ويتفاعل به ويتفاعل معه يأخذ منه ويعطيه يؤثر فيه ويتأثر به ، وخاصة أولئك الذين يتربعون على عرش الحياة الفكرية لهذا المجتمع أو ذاك .

وكما يقال: فإن الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم ، لذلك كان للبيئة التي يعيش فيها الشخص أثر واضح على سلوكه ومجرباته ، وتختلف البيئات فى قوة التأثير ونوعيته حسب مدخلاتها ، فالذى يعيش فى بيئة بدائية جاهلة يختلف عن غيره ، ممن يعيش فى بيئة مزدهرة عالة ، والذى يعيش فى بيئة تكثُر فيها الفوضى ويعمها الاضطراب ، غير الذى يعيش فى بيئة هادئة منظمة ، كما أن البيئة التي يعتورها أكثر من مؤثر واحد تختلف عن البيئة التي هى أقل من ذلك ، وكلما كانت المؤثرات أكثر وأوفر كان الاختلاف فى تأثير البيئات أعمق وأوسع .

ولما كانت أهمية البيئة بهذه الصورة كان لابد لدراسة جوانب شخصية (ما) من التعرف على بيئتها والمؤثرات التي تسودها حتى يتسنى للباحث الحكم عليها بصورة دقيقة وعبرة لا تفتقر .

ولدى النظر فى حياة التاج السبكي رحمه الله نجد أنه عاش خلال القرن الثامن أي بين سنة (٧٢٨ - ٧٧١ هـ) فى دولة المماليك من الأتراك ، والعصر المملوكي فى جملته له أهمية ومكانة فى الحياة الاسلامية بشكل عام لذلك سوف نبدأ الكلام فيه من بداية تكوينه عام ٦٤٨ هـ بصورة موجزة على النحو التالي :

المبحث الأول

في بداية تكوين دولة المماليك التي عاش التاج في عهدها

ولد التاج السبكي رحمه الله في قرية سبك من أعمال المنوفية بمصر سنة ٧٢٨ هـ وفي هذه السنة مات شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله الذي كان له دوى جلل في الحياة العلمية والسياسية في العصر المملوكي بشكل عام، بما كان يتبناه رحمه الله من مواقف عظيمة وأعمال جليلة أثرت كثيرا في الحياة السياسية وقومت اعوجاج كثير من الولاة والحكام، وسلكت بهم الجادة في أوقات كثيرة من ذلك العصر.

وكان العصر المملوكي قد بزغ نجمه واستهل صارخا على إثر انقضاء دولة الأيوبيين عام ٦٤٨ هـ على يد المعز ابن أيبك التركماني، الذي قضى على آخر حكام الدولة الأيوبية في عهده، السلطان توران شاه، وكان هذا السلطان قد ولي الحكم بعد موت أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب (١) أواخر عام ٦٤٧ هـ

(١) توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله بالمنصورة من ديار مصر، وهو يجاهد الفرنج ناصر للدين سنة ٦٤٧ قال ابن كثير ١٦٨/١٣ : « فأخفت جاريته عصمة الدين (أم خليل) المدعوة «شجرة الدر» موته وأظهرت أنه مريض مدنف لا يوصل إليه ، وبقيت تعلم عنه بعلامته سواء وأعلنت أعيان الأمراء فأرسلوا إلى ابنه المعظم (توران شاه) وهو بحصن كيف، من أطراف البلاد فلما قدم إليهم ملكوه عليهم وبايعوه أجمعين فركب في عصائب الملك وقاتل الفرنج فكسروهم وقتل منهم ما يقرب من المائة ألف والحمد لله، ولكنه كان شديدا على المماليك بعض الشيء مما جعلهم ينحرفون عنه فتعلا عليه كبارهم بقيادة شجرة الدر المذكورة والمعز ابن أيبك فقتلوه وبعده انقض ملك بني أيوب الذي استمر ٨٣ ثلاثة وثمانين عاما وسارت الدولة إلى الأتراك .

٦٤٧ هـ فقتله المعز المذكور بعد شهرين من ولايته وتسبب زمام الحكم بعد أن تزوج بالجارية شجرة الدر (أم خليل) وكانت هذه قد مهدت له الطريق للوصول إلى الحكم وتآمرت معه على قتل السلطان توران شاه (١) ، ولكنه أراد أن يتزوج عليها بأخرى فقتلته فوراً ثم آل أمرها بعده إلى القتل والهوان ، وبعده أقام الأمراء بقيادة رئيسهم سيف الدين قطز ، ولده (عليا) ملكاً على البلاد سنة ٦٥٥ هـ ولقبوه بالملك المنصور رغم صغر سنه ، واستمر سلطاناً على مصر إلى أن خلعه قطز عام ٦٥٨ هـ واستولى على عرش السلطنة وتم له الأمر بالاجماع ولقب بالملك المظفر سيف الدين قطز .

وعلى يد هذا السلطان تأسست دوله المماليك في مصر ، ثم تمكنست واستقرت على يد خلفه الظاهر بيبرس ، الذي أعاد الخلافة العباسية إلى مصر بعد أن قضى عليها التتار في بغداد ، في حملتهم المعروفة كما سنفصله في المبحث الآتي . .

(١) يرى بعض المؤرخين أن الجارية شجرة لدر هي التي وليت الحكم في مصر عقب قتل السلطان توران شاه ، لمدة ثلاثة أشهر وضرب اسمها على السكة وخطب لها على المنابر ، وقد أنكر علماء مصر توليها الحكم كما أنكر ذلك الخليفة العباسي في بغداد أشد إنكار ، عندئذ خلعت نفسها وعهدت بالسلطة إلى المعز ابن أبيك ، وتزوجته فتم له بذلك الوصول إلى الحكم ، وبذلك يمكن اعتبارها قنطرة وصل المماليك إلى الحكم عن طريقها ، وهي حد فاصل بين عهدين : انظر المقرئ ٣ / ٣٣٤ ، بدايع الزهور ٢٨٧ / ١ ، البدية والنهاية ١٣ / ١٦٩ .

المبحث الثاني

قضاء التتار على الخلافة العباسية ببغداد

هذه الكارثة التي حلت بعاصمة الخلافة بغداد، والطامة التي محقت الاسلام وأهله في تلك الديار، يصورها لنا الجلال السيوطي رحمه الله فيقول: "إن حديثها يأكل كل حديث وخبرها يطوى كل الأخبار وتاريخها ينسى كل التواريخ، وإنها لنازلة تصغر عندها كل نازلة، فهي من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى، فلو قال قائل إن العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يشبهها ولا ما يقاربها".^(١)

ثم أخذ يسرد قصتها وملابساتها وما كان من أمرها فقال: دخلت سنة ٦٥٥ هـ والتتار جائلون في البلاد وشرهم يتزايد ونارهم تستعمر، والخليفة والناس في غفلة عما يراد بهم، والوزير ابن العلقمي الخبيث الرافضي حريص على إزالة الدولة العباسية ونقلها إلى العلوية والرسل في السر بينه وبين التتار تترى، والخليفة المستعصم تائه في لذاته لا يطلع على الأمور ولا غرض له في المصلحة، وكان أبوه المستنصر قد استكثر من الجند، فلما استخلف المستعصم كان خليفا من الرأي والتدبير، فأشار عليه الوزير بقطع أكثر الجند وأن مصانعة التتار وإكرامهم يحصل به المقصود ففعل ذلك.

ثم إن الوزير كاتب التتار وأطمعهم في البلاد وسهل عليهم ذلك وطلب أن يكون نائبهم فوعده بذلك وتأهبوا لقصد بغداد (٢).

وفي سنة ٦٥٦ هـ قدم هولاكو بجيوشه الجرارة إلى بغداد وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل، قال ابن كثير: "فأحاطوا ببغداد من ناحيتيها

(١) انظر تاريخ الخلفاء ص ٤٦٥.

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٦.

الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش كلهم، قد صرفوا عن قطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد... (١) وهو لا التتار (٢) ما كان يقف في طريقهم شيء، فما أن التقوا بعسكر الخليفة، حتى هزم العسكر، ودخلوا بغداد يوم عاشوراء، قال السيوطي: فأشار الوزير لعنه الله على المستعصم بمصالحتهم وقال له: سأخرج إليهم أنا في تقرير الصلح، فخرج وتوثق لنفسه منهم (٣).

ثم ورد إلى الخليفة وقال: إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ويبيحك في منصب الخلافة ولا يريد منك إلا الطاعة وينصرف عنك بجيوشه، والرأى أن يجيب مولانا ويخرج إليه لتقع المصالحة، فوافق على ذلك (٤) ثم ذهب الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا مع الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والأمرأ والأعيان، وروءوس الدولة، فلما اقتربوا من منزل هولاكو حجبوا عن الخليفة، إلا سبعة عشر رجلا خلص بهم الخليفة وأنزل الباقي من مراكبهم فنهبت وقتلوا عن آخرهم.

-
- (١) البداية والنهاية ٢٠١/١٣، الطبقات ٢٦١/٨ وما بعدها.
- (٢) قال السيوطي عن ديانتهم إنهم قوم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئا ويأكلون جميع الدواب حتى بنى آدم، ولا يعرفون نكاحا بل المرأة منهم يأتيتها غير واحد، انظر كلامه في حسن المحاضرة ٥٢/٢، تاريخ الخلفاء ص ٤٦٧.
- (٣) قال التاج "وكان هذا الوزير شيعيا رافضيا في قلبه غل على الاسلام وأهله تحيل في مكاتبة التتار وتهوين أمر العراق عليهم وتحريضهم على أخذها، ووصل من تحيله في المكاتبة إليهم أنه خلق رأس شخص وكتب عليه بالسواد وعمل على ذلك دواء صار المكتوب فيه كل حرف كالحفرة في الرأس، ثم تركه عنده حتى طلع شعره، وأرسله إليهم، وكان مآكته على رأسه إذا قرأتم الكتاب فأقطعوه، فوصل إليهم فحلقوا رأسه وقروا مآكته ثم قطعوا رأس الرسول" - انظر الطبقات ٢٦٣/٨.
- (٤) راجع ابن كثير ٢٠٢/١٣ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٦٧ وما بعدها، حسن المحاضرة ٢٠٠/٢.

ثم مد الجسر، وبذل السيف في بغداد، واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً، فبلغ عدد القتلى حوالي مليوني نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قنارة .

قال السيوطي : وقتل الخليفة رفساً، وما أظنه دفن ، وقتل كافة من كان معه من أولاده وأعمامه وكانت بلية لم يصب الاسلام بمثلها ، فانظر إلى هول هذه الكارثة المدمرة التي أهلكت الحرث والنسل، وكادت أن تأتي على الاسلام جملة، لولا لطف الله بهذه الامة، وصدق الله العظيم " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " (١) .

وزير في دولة الاسلام يدعي الاسلام ويخون الأمة فيصانع الكافرين ويفعل العظائم ، هكذا تفعل بالاسلام النحل الضالة والفرق الرافضة على طول تاريخه ، ورحم الله ابن القيم حيث يصور لنا كيدهم على الاسلام ومآلاتهم لأعدائه، وتحزبهم ضد المسلمين في كل زمان ومكان، فيقول " . . فإنه قط ماقام عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الاسلام، وكم جروا على الاسلام وأهله من بلية وهل عاشت سيوف المشركين عباد الأصنام من عسكر هولاء وذويه من التتار إلا من تحت رؤوسهم، وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل سرور المسلمين وعلماؤهم، وعبادهم، وخليفتهم إلا بسببهم ومن جرائهم، فمظاهرتهم للمشركين والنصارى معروفة عند الخاصة والعامة، وآثارهم من الدين معلومة " (٢) .

هذا هو دينهم على مر التاريخ، فهل من عبرة وعظة؟ وإنما يتذكر أولو الألباب (٣) .

(١) الآية (٤٦) من سورة الأنفال .

(٢) انظر مدارج السالكين ١/ ٧٢ .

(٣) الرعد آية (١٩) .

المبحث الثالث

الحديث من وقعة عين جالوت

تقدم أنه في سنة ٦٥٥ هـ قتل السلطان المعز ابن أبيك التركمانى سلطان مصر، على يد زوجته شجرة الدر، وبعض الأمراء، ثم سلطنوا بعده ولده (عليا) ولقبوه بالملك المنصور . وكان يومئذ صغيراً، وفي سنة ٦٥٦ هـ حدثت كارثة التتار ببغداد، والتي على إثرها سقطت الخلافة العباسية هناك وقتل الخليفة وسائر حاشيته، وعاث هولاكو وجنوده في الأرض الفساد، فسفك الدماء لمئات الآلاف من الناس، وأتلف الكتب الكثيرة التي كانت تملأ مكتبات بغداد، وأحدث في البلاد خراباً ماحقاً، ثم زحف على الشام واستولى عليها وفعل أفاعيله فيها ثم أخذ يهدد مصر وطارت أنباءه إلى سامع الأمراء هناك فجمع نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز أعيان البلاد، من القضاة والعلماء واستشارهم في الاقتراض من التجار، وأخذ أموال من الشعب ليستعين بها على جهاد التتار .

فكان الاعتماد على قول الشيخ ابن عبد السلام فأفتاهم بأنه لا يجوز ذلك إلا بعد أن يؤخذ كل ما عند الأمراء من الذهب والأموال والآلات النفيسة، ويفرق في الجيش فإذا لم يكف ذلك، جاز أخذ الأموال من سائر الناس بقدر الحاجة عندئذ (١) .

ثم نوقش في هذا الاجتماع خلع الملك المنصور وكان يومئذ صبياً صغيراً لا يعرف تدبير المملكة ولا يصلح للسلطة في وقته ذاك ، لأنه لا يستطيع إدارة الحكم في هذه الظروف الحرجة، التي تتطلب حاكماً قوياً محكماً فوقع الاتفاق

(١) راجع طبقات الشافعية ٢١٥/٨، البداية والنهاية ١٣/١٩٠ ،

النجوم الزاهرة ٧٢/٧، السلوك ١/٤٣٣ .

على تولية الأمير سيف الدين قطز سلطانا على البلاد فبايعوه (١) ، وكان ذلك في ذى القعدة سنة ٦٥٧ هـ ولما تولى الحكم لقب بالملك المظفر قطز وأخذ يعد العدة لحرب التتار وسار بجيشه إلى عين جالوت وكانت جيوش التتار قد وصلت هناك فالتقى الجمعان وحمل الوطيس، وقاتل التتار ببسالة وبلاء فانتهصر عليهم نصرا موهرا، وقتل قائدهم "كئبغا" وكسر جيشهم العرمم الذى قيل عنه يومئذ إنه لا يغلب، فانهزموا شر هزيمة وأوسعهم المسلمون قتلا وأسرا حتى فر الباقون وولوا الأدبار، لا يلوون على شئ؛ وكان أمر الله مفعولا، وكان ذلك في رمضان سنة ٦٥٨ هـ وتبع قائد الجيش الأمير الظاهر بيبرس فلول التتار المنهزمة حتى أجلاهم عن الشام ، وبعد انقضاء المعركة وتمام النصر للمسلمين قفل الجيش الإسلامي عائدا إلى مصر وفى أثناء الطريق جرى بين الملك المظفر قطز ونائبه الأمير الظاهر بيبرس بعض الخلاف، وأوفر صدر كل منهما على الآخر (٢) .

لكن الظاهر بيبرس خشي على نفسه من السلطان و خاف إن هو رجع إلى القاهرة بعد هذا الانتصار العظيم والتفاف الناس حول السلطان أن يقضى

(١) قال ابن كثير وكان ذلك من رحمة الله بالمسلمين فإن الله جعل على يده كسر التتار، البداية والنهاية ١٣ / ١٨٩ .

(٢) قيل إن سبب الجفا بينهما هو أن الظاهر بيبرس بعد انتهاء المعركة ساق وراء التتار إلى بلاد حلب وطردهم عن البلاد، ووعده السلطان قطز بحلب، ثم رجع عن وعده ، فتأثر بيبرس من ذلك، وكان ذلك مبدءا للوحشة بينهما .

قال السيوطي : " وكان المظفر قطز عزم على التوجه إلى حلب لينظف البلاد من آثار التتار فبلغه أن بيبرس تنكر له فصرف وجهه عن ذلك ، ورجع إلى مصر وقد أضمر الشر لبيبرس وأسر ذلك إلى بعض خواصه ، فأطلع على ذلك بيبرس فساروا إلى مصر وكل منهما محترس من صاحبه فاتفق بيبرس وجماعة من الأمراء على قتل قطز فقتلوه فى الطريق " ، تاريخ الخلفاء ص ٤٧٦ .

عليه بكل سهولة، فقرر التخلص منه، وخاتله حتى تمكن منه، فوثب عليه وقتله، ففى أثناء الطريق قبل وصوله إلى مصر، وعاد بالجيش إلى القاهرة فأعلن استيلائه على الملك وبايعه الناس ولقب بالملك الظاهر بيبرس، وكان بيبرس قائدا حربيًا هجوماً محنكا لا يقدر عليه، قال ابن كثير: "كان الملك الظاهر بيبرس شهماً شجاعاً عالى الهمة بعيد الغور مقداماً جسوراً يشفق على الاسلام وأهله، أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه فى هذا الوقت الشديد" (١).

ونقل السيوطى عن الذهبي فى ترجمته للظاهر قوله: "كان الظاهر خليفاً بالملك لولا ما كان فيه من الظلم" قال:، والله يرحمه ويغفر له، فات له أياماً بيضاء فى الاسلام ومواقف مشهودة معدودة".

قال السيوطى: "وكان منقماً تحت كلمة الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره، حتى قال لما مات الشيخ " ما استقر ملكي إلا الآن" (٢).

(١) انظر البداية والنهاية ٢٠٥/١٣، ٢١٩/١٣.

(٢) راجع حسن المحاضرة ١٠٥/٢.

المبحث الرابع

إعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة

بعد اجتياح التتار لعاصمة الخلافة بغداد واستئصالهم بقيت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ بقيت الدنيا بدون خليفة لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر^(١) ، وفي شهر رجب من عام ٦٥٩ علم السلطان الظاهر بيبرس ، أن بالعراق رجلا من بقايا البيت العباسي أخطأته مذبة المغول ، فجد في استحضاره واستقدمه فورا إلى القاهرة ، فلما وفد عليه ومعه بعض أصحابه ركب السلطان للقاءه ومعه القضاة والدولة فشق القاهرة ثم أثبت نسبه إلى بني العباس بحضور جمع من القضاة والأعيان وكبار رجالات الدولة ثم بايعوا له بالخلافة ، وكان أول المبايعين الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، ثم تبعه السلطان بيبرس ، ثم بقية العلماء والأمرأة والأعيان ، ثم كافة الخلق ، وكان يوما مشهودا وضرب اسمه على السكة وخطب له على المنابر وفرح الناس بذلك جدا ، ولقب بالمستنصر بالله أحمد ، ثم قلد الخليفة السلطنة للظاهر بيبرس وخلع ذلك عليه في شهر شعبان من هذه السنة وعهد إليه بتصرف أمور البلاد الحاضرة وما سيفتح منها فاستوثق الظاهر بيبرس لملكه^(٢) وكسب الشرعية اللازمة لتثبيتته سلطانا على البلاد ، فتمكن بذلك واستقام له الأمر ، ثم عزم الخليفة على التوجه إلى العراق فخرج معه السلطان يشيعه إلى دمشق ، ثم جهزه بعد ذلك بما يحتاجه من المال والعتاد ، وفي أثناء الطريق تلقاه جماعة ، من عسكر التتار فقتلوه ومن معه في المحرم من سنة ٦٦٠ هـ فكانت خلافته دون ستة أشهر ،

(١) انظر حسن المحاضرة ٢/ ٥٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٧٧ ، بالبداية

والنهاية ٢١٩/ ١٣ .

(٢) إذ كان الناس يعتبرون المماليك غاصبين للسلطة من بني أيوب

الذين يستمدون سلطتهم من الخليفة العباسي ببغداد .



وفى سنة ٦٦١ هـ قدم إلى السلطان رجل ادعى أنه من بنى العباس وأثبت نسبه للبيت العباسى أمام ملاء من الناس ورجال الدولة والعلماء فبايعوه بالخلافة على نمط الطريقة المتقدمة فى مبايعة الخليفة المستنصر ولقب بالحاكم بأمر الله العباسى، ثم قرر السلطان خوفاً عليه بقاءه فى القاهرة هذه المرة، واستمر خليفة إلى أن مات سنة ٧٠١ هـ ثم توالى ذريته من بعده على الخلافة واحداً إثر واحد . . إلى ما شاء الله . .

لكن هذه الخلافة الهشة لم تكن ذات معنى فى الواقع إذ كان الحاكم الفعلى فى حقيقة الأمر هو السلطان، والخليفة لا يعدو أن يكون مظهرًا من مظاهر شرعيته فقط .

لذلك كان باستطاعة السلطان أن يخلع الخليفة متى شاء ويبيع غيره وبإمكانه أن يحبس أو ينفيه إلى أقصى البلاد كما يحلوه الأمر دون اعتراض من أحد .

قال ابن كثير فى حوادث سنة ٧٣٧ هـ: " استهلّت يوم الجمعة والخليفة المستنكى بالله قد اعتقله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومنعه من الاجتماع بالناس ثم نفاه آخر الأمر إلى بلاد قوص ومعه أهله وذووه ومن يلوذ به وكانوا قريباً من مائة نفس وبقي منفياً هناك إلى أن مات " (١) .

سنة ٧٤١ هـ: لذلك كان الخلفاء طوال عهد المماليك شكلاً بلا حقيقة إذ ليس لهم من الخلافة إلا اسمها (٢) ، وقد استمر السلطان الظاهر بيبرس مترعاً

(١) انظر البداية والنهاية ١٤ / ١٥٣ ، وانظر أيضاً الدرر الكامنة ٢ / ١٤١ .

(٢) قال ابن القيم فى مدارج السالكين ١ / ٢٤٩ عند كلامه على أهل التقليد المتعصبين للمذاهب وكيف أن النصوص عندهم لا قيمة لها بجانب أقوال الأئمة : قال إنهم " . . أنزلوا النصوص منزلة الخليفة فى هذا الزمان اسمه على السكة وفى الخطبة فوق المنابر مرفوع ، والحكم النافذ لغيره ، فحكمه غير مقبول ولا مسموع " . .

على عرش مصر إلى أن مات سنة ٦٧٦ هـ وجاء بعده السلطان قلاوون ولقب بالملك المنصور فتسلطن إلى أن مات سنة ٦٨٩ هـ ثم ولي بعده ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل ومكث إلى أن قتل سنة ٦٩٣ هـ .

ثم تسلطن بعده أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو ابن تسع سنين ثم خلع، ثم أعيد، ثم خلع ثانية، ثم تسلطن للمرة الثالثة وعمره أربع عشرة سنة واستمر بعد ذلك سلطانا بلا منازع إلى أن مات أواخر سنة ٧٤١ هـ وهو أطول سلاطين المعاليك مدة .

ثم تسلطن بعده من أولاده ثمانية على الولا لم يكملوا نصف هذه المدة (١) ، وكان الملك الناصر هذا موصوفا بالظلم والجساسة والقسوة (٢) .

قال السيوطي: "لذلك انتقم الله منه في أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد في البلاد والقتل".

فجميع من تولى الملك من ذريته إما أن يخلع عاجلا وإما أن يقتل .

(١) أولهم ابنه الملك المنصور الذي تسلطن بعده مباشرة عام ٧٤٢ هـ ولكنه كان فاسد السيرة الشخصية فلم يمكث غير أشهر ثم خلع وقتل، وثامنهم الملك اسماعيل الذي ولي سنة ٧٥٢ هـ واستمر إلى أن خلع سنة ٧٥٥ هـ انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٥٠١ ، الدرر الكامنة ١٤٤/٤ ، البداية والنهاية ٢٠٤/١٤ .

(٢) قال ابن حجر في ترجمة هذا السلطان "إنه ولد وكفاه مقبوضتان ففتحتهما القابلة فسال منهما دم كثير، ثم صار يقبضهما فإذا فتحتهما سال منهما دم كثير، فأنذر ذلك بأنه يسفك على يديه دما كثيرة فكان كذلك".

انظر الدرر الكامنة ١٤٤/٤ وما بعدها .

قال ثم إن الله نزع الملك من ولد قلاوون وأعطاه بعض ممالئكم ولم
يعد إليهم إلى وقتنا هذا ، وبعض ورثته أحياء ، إلى الآن في أسوأ حال ديننا
ودنيا ، ومن تأمل بدائع صنع الله رأى العجب العجائب ولكن أكثر الناس
لا يعلمون ، " وإنما يتذكر أولو الالباب " هذا وقد كان صراع الممالئ على
السلطة وقتل بعضهم بعضا في سبيل ذلك أمرا مألوفا لا يتخرجون منه كما
سنراه في المبحث التالي . .

المبحث الخامس

التصارع على السلطة عند حكام المماليك

هو هؤلاء المماليك أصلهم قوم أرقاء كان قد اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت ٦٤٧ هـ) ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين واستعملهم في خدمته وجيشه وتصريف أمور دولته ثم قفزوا إلى السلطة وتسلموها مائلاً قهراً بعد أن قتلوا آخر ملوك بني أيوب وابن أستاذهم السلطان المعظم توران شاه وأواخر عام ٦٤٧ هـ وسلطوا بعده أول مملوك منهم وهو المعز ابن أيبك التركمانى الصالحى كما قدمناه فى المبحث الأول . . ثم صارت الدولة لهم بعد ذلك واحداً إثر واحد ، وكانت حكومتهم فى مجملها عبارة عن مجموعة من الأفراد يبطش بعضها ببعض وينقض بعضها على بعض طمعاً فى الوصول إلى السلطة ولو بأى ثمن .

فحياتهم من هذه الناحية هى سلسلة متصلة من الفتن والدسائس والكيد والغدر على نحو لا يمكن معه أن تستقر أمور أمة .

فكل أمير يتطلع إلى السلطة يرى من الضرورى للوصول إليها الاكثار من مماليكه ليتمكن بهم من الغلبة فإذا وصل فلا ضمان لبقائه سوى إخلاص عصابته وإعمال الحيلة فى إرضاء سائر الأمراء الآخرين (١) ، لذلك فقد عانى الحكم

(١) ولا يكون ذلك إلا باقطاعاتهم الاقطاعات الضخمة من الأراضى الزراعية ومن ثم صار أغلب الأراضى اقطاعات للمماليك .

أضف إلى ذلك ما كان ينعم به على هؤلاء من المنح السخية والأموال الطائلة والملابس الفاخرة مما جعل الناس يتبرمون ولا يطيقون هذا الارهاق المالى الذى اقتضته حروب السلاطين والأمراء فيما بينهم ، فوق ما اقتضته معيشتهم من بذخ وشر ، وكل ذلك يستنفد ثروة البلاد وأقواتها فينعكس مردوده على الناس ويضر بهم إضراراً بالغاً .

المملوكى من عدم الاستقرار وكثرة الاضطرابات فى وظيفة السلطنة كثيرا وهذه الصفة لم تمنح أحدا من السلاطين فترة طويلة من الحكم إلا نادرا .

ومن النادر أن تجد منهم من مات ميتة طبيعية بسبب كثرة الانقلابات والفتن والقفز إلى السلطة بالقوة العسكرية ، ولقد صاحب هذا الاضطراب فى وظيفة السلطنة اضطراب شديد فى الوظائف الكبرى ، إذ ندر جدا أن يبقى إنسان فى وظيفته أكثر من ثلاث سنوات بل كثيرا ما كان النائب أو الأمير أو القاضى أو الوالى يعين ويعزل خلال حياته أكثر من مرة وفى كل مرة فى الغالب كانت تصدر ممتلكات الموظف المعزول وتفرض عليه الغرامات الباهظة .

واليك صورا من هذه الوقائع لترى كيف كانت تسير الأمور ؟ .

المبحث السادس

فى ذكر صور من هذا التصارع

قال ابن كثير فى حوادث سنة ٦٩٤ هـ فى يوم عاشوراء " نهض جماعة من ممالك الملك الأشرف وخرقوا حرمة السلطان وأرادوا الخروج عليه وجاؤا إلى سوق السلاح فأخذوا مافيه ثم أحيط بهم فممنهم من صلب ومنهم من شنق وقطعت أيدي آخرين منهم والسنتهم وجرت خبطة عظيمة جدا وكانوا قريبا من ثلاثمائة أو يزيدون . "

وذكر فى حوادث سنة ٧٤٨ هـ " أن الأمير يلبغا الناصرى عزل عن نيابة الشام ثم طورد ، وقتل فى نفس السنة هو وكثير من أهله ، وعين بدله الأمير سيف الدين أرغون على نيابة الشام ، وفيها أيضا قتل سلطان البلاد الملك المظفر حاجى ، فقد وقع بينه وبين الأمراء أشياء فتحيروا عنه فخرج عليهم فى طائفة قليلة فقتل فى الحال ثم قطع قطعاً . "

وفى سنة ٧٥٠ هـ جاء الأمر بمسك الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة بدمشق وقتله ، فدخل عليه جماعة من الأمراء وهو مع جواربه نائم فخرج إليهم فقبضوا عليه وقيدوه وأصبح الناس وأكثرهم لا يشعر بشئ مما وقع فبات عزيزا وأصبح ذليلاً وأمسى علينا نائب سلطنة فأصبح وقد أحاط به الفقر والمسكنة (١) ، فسبحان من بيده الأمر يومئذى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

قال : وهذا كما قال تعالى : " أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا

ببياتا وهم نائمون " (٢) .

(١) انظر البدايه والنهاية ١٤ / ١٩ ، ١٤ / ١٩٠ ، ١٤ / ٢٤٢ ، ١٤ / ٣٢٠ .

(٢) سورة الأعراف آية (٩٧) .

وذكر ابن حجر في الدرر : في ترجمة السلطان الناصر حسن : أنه أول ما ولي السلطنة سنة ٧٤٨ هـ بعد أخيه المعز فقبض على حاشية المعز ثم أفرط في مسك الأمراء جدا واستبد بالأمراء ولكنه خلع سنة ٧٥٢ هـ . . ثم أعيد سنة ٧٥٩ هـ فاستبد بالمملكة وصفت له الدنيا ولم يشاركه أحد في التدبير ولم يكن في زمانه من النواب من يقيم أكثر من سنة وكذلك الأمراء ثم استمر على هذه الحال إلى أن خلع ثم قتل ، على يد قائده يلبغا الناصري سنة ٧٦٢ هـ .

قال : وكان الأمير يلبغا أول من أمره الناصر حسن ثم كان على رأس من قام عليه .

وفي سلطنة الأشرف شعبان تناهت الرئاسة إلى هذا الأمير ولقب بنظام الملك وصار صاحب الأمر والنهي ، وهو السلطان في الباطن ، والأشرف بالاسم ، وكان موكبه من أعظم المواكب وصار العدد الكبير من مماليك نواب البلاد وكان يحمل إلى خزينته في كل يوم مائتا ألف دينار ، ثم كان آخر أمره أن قتله بعض مماليكه بإذن السلطان سنة ٧٦٨ هـ* (١) .

هكذا كانت الحالة كما نرى كلها فوضى واضطراب لا يصفوها لها مشرب ولا يضي لها وجه ، وما ساعد على بروز هذه الحالة النكد ما كان يوجد بين الأمراء من الحزبية والعصبية التي كانوا يولفونها حول أنفسهم فكل أمير له أتباعه وخاصته وله مماليك وحاشيته ، وقد اكتوى الناس دائما بنيران هذه الفتن والمؤامرات ، وذاقوا بسببها الكثير من الويلات ، وأكثر ما وجد من ذلك في الفترة التي عاشها التاج السبكي في الشام أي ما بين (٧٤١ - ٧٧١ هـ) .

وفي مقابل هذه الصورة المعتمدة لسلطين المماليك فقد كانت لهم في

مجالات أخرى صور مشرقة ناصعة حيث قاموا بحرب الصليبيين ودحرهم
والانتصار عليهم في معارك متتابعة .

يقول ابن كثير : " عندما نودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى
عكا . . خرجت العامة والمتطوعة يجرون على عجل حتى الفقهاء والمدرسين
والصلحاء وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويداري، وخرجت العساكر بين
يدى نائب الشام، وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر، وخرج
الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس وركب الأشرف من الديار المصرية
بعساكره قاصدا عكا، فتوافت الجيوش هناك وطلع المسلمون على الأسوار ونصبوا
المناجق فولت الفرنج عند ذلك الأدبار وركبوا هاربين في مراكب النجاة
وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى، وغنم المسلمون من الأمتعة والرقيق
والبضائع الشيء الكثير وسلمت صور، وصيدا قيادتهما إلى الملك الأشرف
فاستوثق الساحل للمسلمين ونظف من الكافرين" (١) .

وقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (٢) .

وأيضا فقد قاموا بدحر جيوش التتار وصدّهم وقصم ظهورهم في موقعة
عين جالوت، التي دارت بين المسلمين والمغول سنة ٦٥٨ هـ كما قد مر بك .

فإن الملك المظفر قطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بديار الشام
بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه، فالتقى
الجمعان على عين جالوت واقتتلوا قتالا عظيما، توج بنصر الله للإسلام وأهله
وكان يوما مشهودا في جبين التاريخ وصارت هذه الموقعة بداية لمرحلة
جديدة في تاريخ الاسلام .

(١) انظر البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٠ .

(٢) قطع دابر الذين ظلموا : الآية (٤٥) من سورة الانعام .

كما أن إعادة الخلافة العباسية إلى مصر على يد السلطان الظاهر
بيبرس، بعد أن قضى عليها التتار في بغداد، يعد معلما مضيئا في تاريخ
دولة المماليك لما كان لذلك من أثر كبير في نفوس المسلمين لأن الخلافة
كانت هي الرمز الوحيد لوحدة الأمة واجتماع كلمتهم .

ويمكن أن نستنتج مما تقدم أن دولة المماليك قد برزت كقوة جديدة
أعادت للإسلام هيئته وبعثت الأمل في نفوس المسلمين من جديد بعد ما أصابهم
من الوهن والرعب الذي صاحب انتصارات التتار المتلاحقة عليهم واستيلائهم
على بغداد والشام وكثير من بلاد الاسلام ، وصدق الله العظيم : " ولا تهنوا
ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين " (١) .

المبحث السابع

تشوف الناس إلى المناصب والسعى في طلبها

نظرا لما وجد في العصر المملوكي من التضارب على السلطة عند الحكام والأمراء كما قد عرفت فإن هذه الظاهرة لم تقتصر على الفئة الحاكمة وحدها بل انتشرت واستولت على مقاليد كثير من الخلق ، ووجد من سائر الناس من يبذل في سبيل الحصول على المنصب الغالي والرخيص فظهرت الرشوة واستشرت وعمت وتعامل بها كثير من أرباب الوظائف العالية، فأدى ذلك إلى فساد الذم ووضع أشخاص لا كفاءة لهم في وظائف حساسة في الدولة وحرمان ذوي الكفاءة منها .

قال ابن كثير: " في حوادث سنة ٧١٢ هـ قدم كتاب من السلطان إلى دمشق ألا يولي أحدًا بمال ولا برشوة، فإن ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية وإلى ولاية غير الأهل ، قال وكان سبب ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله (١) .

فقد كان من له وظيفة مرموقة في الدولة ينظر إليه عامة الناس بعين الاجلال والإكبار، فإن فقدوها سقط من أعينهم وتركوه ، ومما يصور لنا واقع حال الناس في ذلك العصر ما أورده ابن حجر عن القاضي بدر الدين بن عبد الله الحنبلي (ت ٧٤٩ هـ) وقد أنشد لنفسه في واقعة وقعت له فقال :

تحالف الناس والزمان .. فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يوم .. فانكشف الناس لي وبانوا
يا أيها المعرضون عني .. عودوا فقد عاود الزمان

وذكر أن سببها أنه عزل في كائنة اتفقت له فجاءه الخبر أول النهار
وعنده جمع كثير فأنفض ذلك الجمع في الحال ، ثم جاءته الولاية آخر النهار قال :
فكاد باب منزلي يتكسر من شدة الزحام (١) .

ولم يقتصر حب المناصب وطلب العلو في الدنيا على العامة من الناس ،
وسائر الموظفين في الدولة بل تعدى ذلك إلى طبقة العلماء والفقهاء فوجد
منهم من يقفوا هذا المسلك ويمشون في ركابه ، فيترددون إلى أبواب السلاطين
والأمراء ، ويبذل الأموال رغبة في الجاه والازدياد من متاع الحياة .

قال التاج رحمه الله : " ومن العلماء من يضيع كثيرا من وقته في طلب
القضاء وغيره من المناصب ، وكثير من القضاة لا يدخلون في القضاء إلا بالسعي
وربما بذلوا عليه الذهب . " (٢) _

وذكر ابن الوردي في تاريخه في حوادث سنة ٧٤٠ هـ أن برهان الدين
الرسعني بذل لنائب حلب مالا كثيرا حتى جعله قاضي قضاء الشافعية فيها :
قال : " ولم يصادف راحة في ولايته " (٣) .

(١) راجع الدرر الكامنه ٣ / ٣٣٠ .

(٢) معيد النعم ص ٦٧ ، قال التاج وإني لأعجب أشد العجب من عالم
يجعل علمه سبيلا إلى حطام الدنيا وهو يرى كثيرا من الجهال وصلوا
من الدنيا إلى ما لا ينتهي هو إليه فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهل
فما بالنا نشترها بأنفس الأشياء وهو العلم ، فينبغي أن يقصد بالعلم
وجه الله تعالى والترقى إلى الملاء الأعلى .

(٣) انظر ذلك ٢ / ٣٣٨ .

المبحث الثامن

فى موقف التاج السبكى من الأحداث السياسية فى عصره

لم يكن التاج السبكى رحمه الله سلبيا تجاه تلك الأحداث السياسية المضطربة فى عصره، بل كان إيجابيا متفاعلا معها متأثرا بها ومؤثرا فيها بشكل جلى،

ومن تأثره بها أنها كشفت عن معدنه الأصيل وأبرزت معالم شخصيته الغدة، من التمسك بالعقيدة ونصرة الحق والشجاعة الأدبية النادرة والمخاطرة بالنفس فى سبيل إعزاز الدين، فقد أثر فى هذه الأحداث بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومقارعة الظلم والظالمين وقام حيال ذلك كله بما لم يقم به غيره، ويتجلى هذا الأمر فى مواقفه الشجاعة من الحكام والولاة والأمراء والوزراء وغيرهم من ذوى النفوذ والسلطان فى عصره، كقوله مثلا عند كلامه على السلاطين: "إن من وظائف السلطان الفكرة فى العلماء والفقراء وسائر المستحقين وتنزيلهم منازلهم، وكفايتهم من بيت المال الذى هو فى يده أمانة عنده ليس هو فيه إلا كواحد منهم ولدلوه نسبة دلاء المسلمين، فإن تركهم جياعا فى بيوتهم وأخذ يمن بعظيم ملكه وزينته ولباس حاشيته فذاك أحق جهول، وإن ضم إلى هذا أنه استكثر على الفقهاء ما بأيديهم وتعرض لأوقاف وقفها أهل الخير ممن تقدمه عليهم فهو بلاء على بلاء^(١)، فإن ضم إلى ذلك أنه يبيعها ويضعها

(١) وقد كان الأمراء فى دولة المماليك يستكثرون أرزاق العلماء وإن قلّت، ويستقلون الأرزاق على أنفسهم وإن كثرت، قال التاج: "وهذه الطائفة من الأمراء يخشى عليها مقت الله فإنها تتبختر فى أنعم الله مع الجهل والمعصية وتنقم على خاصة خلقه يسيرا مما هم فيه، ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دوت رزق أقل مملوك عنده"

فى غير مستحقها فقد خرق حجاب الهيبة " (١)

وفى معرض كلامه على الولاة ذكر أن منهم من يتجاوز فى الضرب المقادير الشرعية ويتنوع فى إيصال الآلام لمن يعاقبه ، بمجرد التهمة والظن ، قال : " وهذا من أعظم الفجور أفعالم هذا الفاجر أن ضرب برى " أصعب عند الله من تخلية ذى جريمة " (٢)

وقال عن الوزير وهو الذى ينظر فى المكوس وغيرها من الأموال التى ترفع إلى السلطان : إن من حقه بذل النصيحة للملك وكف أذاه عن أموال الرعية وتخفيف الوطأة عنهم ما أمكنه ، وقد علم أن المكوس حرام ، فإن ضم الوزير إلى أخذها الاحجاف فى ذلك وتشديد الأمر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراماً إلى حرام ، فإذا جلس هذا الوزير يعاقب الرعايا ليستخرج منهم الخبايا التى لا يجوز له أخذها ودفعها إلى من يأخذها ظلماً ويصرفها فيما لا يحل فكيف يكون وجهه عند الله تعالى ؟ ، قال : ولذلك نرى عواقب الوزراء شر العواقب فى الدنيا والآخرة (٣) ، إلى غير ذلك مما ورد فى كتابه القيم " معيد النعم " ومن تصفحه عرف أى لهجة كانت لهجة تاج الدين رحمه الله فى حملته على النظم القائمة فى وقته وهو من أكبر موظفى الدولة لكنها النفوس الكبيرة لا تبالى بالأخطار ، خاصة وقد كان من حكام زمانه من يبيلغ الذروة فى القسوة والظلم والجبروت ، قال ابن كثير عن واحد من هؤلاء وهو السلطان الناصر حسن الذى تسلط عام ٧٤٨ هـ قال عنه : " إنه لما كثر طمعه وتزايد شره وساءت سيرته إلى رعيته واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله ، وس الناس بسبب ذلك ضرر عظيم ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الإنكار عليه ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين انتقم الله منه

(١) معيد النعم ص ١٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٧ وما بعدها .

فسلط عليه جنده حيث خلعه وقتله أحد خواصه سنة ٧٦٢ هـ والحمد لله رب العالمين " . (١) .

هذه إضافة بسيطة وصورة مختصرة عن الحياة السياسية في عصر التاج السبكي رحمه الله ومنها ننتقل إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر لنرى كيف كانت قسماته وملامحه .

الفصل الثانى :

فى بيان الحالة الاجتماعية والاقتصادية

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الاول : فى طبقات المجتمع فى عصر التاج السبكى

المبحث الثانى : فى البدع والخرافات السائدة فى ذلك العصر

المبحث الثالث : فى الناحية الاقتصادية

المبحث الأول

فى ذكر طبقات المجتمع فى عصر التاج السبكى

عاش التاج السبكى رحمه الله فى مصر والشام وقد مرت هذه البلاد بظروف اجتماعيه متشابهة ويمكن تصنيف حالة الناس فيها إلى طبقات . .

أولا : الطبقة الحاكمة :

وتتكون هذه الطبقة من السلاطين والأمراء والوزراء ، وتقوم بإدارة البلاد ورسم سياستها الخارجية والداخلية ، وتنظيم الجيش وإقامة المنشآت العامة كالمساجد والمدارس وسائر المرافق ، والمحافظة على أمن البلاد وجباية الزكاة وفرض الضرائب وغيرها .

وتعيش فى بحبوحة من النعيم والترف والبذخ قد يصل أحيانا إلى درجة الخيلاء^(١) وتتمتع بالجاه الزائد والكلمة النافذة ، وتختلف مواقف هذه الطبقة من أمور الدين قريبا وبعدا . . فمنهم من ينتهك حرمانه ولا يقف عند أحكامه وحدوده^(٢) ، ومنهم من يحترم الدين وعلماءه ويقف عند أحكامه ويعمل بما أمر به من إبطال المنكرات ورفع المظالم عن الناس والعدل بينهم وتحكيم

(١) من ذلك ما ذكره ابن كثير ١٤/١٣٦ من أن الملك الناصر محمد بن قلاوون زوج ابنه على بنت أحد الأمراء سنة ٧٣٢ وجهزها بألف ألف دينار وذبح فى هذا العرس من الأغنام والخيول والبقر نحو من عشرين ألفا وحملت حلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار وكثر البذخ جدا ، وذكر التاج أن الأمراء فى عهده كانوا يشترون الفرس بمائة ألف درهم والمملوك بخمسين ألفا ، وكان لديهم من الأطرزة والزراكن المحرمة والخيول المسومة ما لا يحصى ، انظر معيد النعم ص ٤٩ .

(٢) قال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص ٥٠١ عن أحد هؤلاء وهو السلطان الملك المنصور إنه خلع عام ٧٤٢ هـ لرعونته وشربه الخمر وسيرته الفاسدة فى الناس ثم نفى إلى بلاد قوص وقتل بها .

الشرع وعدم اللجوء إلى غيره في جميع أموره (١) .

ثانيا : العلماء والفقهاء :

هذه الطبقة كان لها دور كبير وهام في المجتمع المملوكي ، وهى حلقة الوصل بين الحكام والعامّة ومحل ثقتهم واحترامهم ، فالحاكم يعتمد عليها في كسب تأييد العامة له وفي إثارة حماسهم للجهاد ورغبتهم في الانفاق في سبيل الله .

والعامّة تنقاد لهذه الطبقة وتستجيب لما تقوله ، وتعمل بما توجه إليه ، والحاكم يختار منهم القضاة والخطباء ورجال الحسبة ، وأحيانا الوزراء وهم متفاوتون في العلم والتقوى والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمنهم من يرفض القضاء زهدا وورعا ، وخشية من عدم إقامة الحق فيه لفساد الزمان ، ومنهم من يقبله فيعدل بين الناس ، ويحكم بالحق ولو كان على السلطان ، ولا يخشى في الله أحدا ، ومنهم من يجمال الحاكم ، ويجرى على رغبته وأهوائه فلا يأمره بمعروف ولا ينهاه عن منكر ، ومنهم من يأمره بالمعروف وينهيه عن المنكر ولا يجمال في ذلك أحدا كائنا من كان .

ومن هؤلاء الشيخ الامام تقي الدين السبكي رحمه الله فقد كان يقوم في الحق ويفوه بين يدي الامراء بما لا يقوم به غيره فيذعنون لطاعته (٢) ذكر التاج في الطبقات أنه قال مرة لبعض الأمراء وقد رأى عليه طرازا من ذهب على قباء من حرير : يا أمير أليس في الثياب ما هو أحسن من هذا الحرير وأظرف من هذا الطراز؟ أى لذة لك في لبس الحرير والذهب ، وعلى أى شيء يدخل المرء في جهنم؟ وعذله في ذلك حتى قال له ذلك الأمير اشهد علي أنى لا ألبس بعدها حريرا ولا طرازا ، وقد تركت ذلك لله على يدك . قال التاج : فلما فارقه جاءه من أعرفه من الفقهاء وقال له : أما الطراز

(١) ومن هؤلاء على سبيل المثال الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام ،

بين سنة ٧١٢ - ٧٤٠ هـ قال عنه ابن حجر ، سار السيرة الحسنة العادلة ولم يكن أحد يتمكن من ظلم أحد في ولايته ، ولو كان كافرا ، وكان مثابرا على عمل الحق ونصر الشرع ، ويعظم أهل العلم ويجلهم كثيرا ، وكذلك الأمير علاء الدين المارديني قال ابن حجر في ترجمته إنه كان منقادا إلى الشرع يحب العلماء ، ويقربهم مع الدين والفقه والمعرفة ، ولين الجانب وكان من حفظة القرآن : انظر الدرر الكامنة ٢٠/١ ، ٧٧/٢ ، النجوم الزهرية

١١٦/١١ البداية والنهاية ١٤/١٩٥

(٢) الطبقات ١٠/٢١٧ ، البداية والنهاية ١٤/١٨١ .

فقد جوزه أبو حنيفة مادون أربع أصابع وأما الحرير فقد أباحه فلان . . . وأما . . .
وأما . . . ورخص له في ذلك (١) والأمر مسكين ليس له من العلم والعقل ما يميز
به . . .".

وقال أيضا إن الشيخ الامام حكم مرة في واقعة جرت رصم فيها وعانده
أرغون الكاملى نائب الشام، وكاد الأمر يطلخ شاما ومصرا ، قال التاج: فكلمه
القاضى صلاح الدين الصفدى فى ذلك وقال له يامولانا قد أعذرت ووفيت ما عليك
وهو "هـ" ما يطيعون الحق، فلم تلقى بنفسك إلى التهلكة وتعاد بهم؟ قال فتأمل
في مليا ثم قال : (فليت الذى بينى وبينك عامر . . . وبينى وبين العالمين خراب)
والله لا أرضى غير الله ولا أخشى فيه هو "هـ" : قال فعلت أنه لا يرجع بزخرف من
القول .

ومنهم أيضا شيخنا التاج السبكي رحمه الله فله فى باب الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر وإصلاح فساد الحكام والولاية وإلزامهم بتحكيم شرع الله باع
طويل وأخباره فى هذا الباب عجيبة ، خاصة عندما كان هو "هـ" الحكام يخرجون
عن أحكام الشرع والدين، ويحكمون عقولهم فى أمور المسلمين ومصالحهم الخاصة
والعامة .

(١) انظر رقة دين هذا الفقيه كيف لعب بعقل الأمير وأفتاه بالحرام ولم
يرع حق الله فى ذلك . . .

قال التاج : " والفقهاء ما بين صالح وطالح فالصالح غالبا لا يتردد إلى
أبواب الملوك والطالح يتراعى عليهم ثم لا يسعه إلا أن يجرى معهم على
أهوائهم ويهون عليهم العظام " ، طبقات ٢ / ٥٩ ولما كان العلماء هم
القدوة فى الناس فإنه بصلاحهم يصلح الناس وبفسادهم يفسدون ، كما
قال الشاعر :

هم هم خير من فيها إذا صلحوا . . . وشر داء من الأدواء إذا فسدوا
فمنهم كل معروف وصالح . . . ومنهم تفسد الأقطار والبلد
فما شقت أمة إلا بشقوتهم . . . يوما ولا سعدت إلا إذا سعدوا
طبقات ٢ / ١١٧ .

وكمثال على ما نقول نورد إليك ما ذكره فى المثال التاسع والعشرين من كتابه "معيد النعم" عند كلامه على الحاجب، وكان الحاجب يسمى يومئذ قائد الجيش.

قال : " ولم يكن فى الزمان الماضى يحكم . . والآن اصطلحت الترك على أنه يفصل فى القضايا .

فنقول : عليه رفع الأمور إلى الشرع وأن يعتقد أن السياسة لا تنفع شيئاً بل تضراً للبلاد و الرعايا وتوجب الهرج والمرج، ومصلحة الخلق فيما شرعه الخالق، الذى هو أعلم بمصالحهم ومفاسدهم ، وشرعية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم متكفلة بجميع مصالح الخلق فى معاشهم ومعادهم، ولا يأتى الفساد إلا من الخروج عنها، ومن لزمها صلحت أيامه واطمأنت .

ولم يقض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكمل الله لنا ديننا . . ثم قال : وقد اعتبرت - ولا ينبئك مثل خبير - فلم أر ولم أجد من يظن أنه يصلح الدنيا بعقله ويدير البلاد برأيه وسياسته، ويتعدى حدود الله وزواجره إلا وكانت عاقبته وخيمة وأيامه منغصة منكدة وتفتح عليه أبواب الشرور ويتسع الخرق على الراقع.

فمن خطر له أنه إن لم يسفك الدماء بغير حق ويضرب المسلمين بلا ذنب لم تصلح أيامه فعرفه أنه جهول، باغ أحق، حمار، ولته قريبة الزوال ومصيبته سريعة الوقوع، وهو شقى فى الدنيا والآخرة وإذا أخذه الله لم يفلته . . (١)، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التى تنتقد عيوب الحكومة والأمة جميعاً نقداً مرادفاً فقد أبدى المؤلف رحمه الله فى أثناء هذا الكتاب شدة قوة وشجاعة نادرة فيما يتصل برجال الدولة والحكومة فأظهر عيوبهم وكشف عن سواتهم بأسلوب عجيب وجراحة غريبة .

الثالث : العامة :

هذه الطبقة تتكون من خليط من الناس تختلف أجناسها وطبائعها

(١) انظر ص. ٤ وما بعدها من الكتاب المذكور.

وأعمالها، وهم تبع لمن ساد عليهم لا يفرقون بين الفاضل و المفضل، فالسلاطين يتصارعون على الحكم فيما بينهم، والعامّة تشهد هذا الصراع ولا حول لهم ولا قوة، ثم يخضعون للمتصرّ فيدير أمور البلاد والعباد، دون أخذ رأيهم أو مشورتهم ولا يحركون ساكنا .

وعلى كاهل هذه الطبقة يقوم اقتصاد البلاد فتروج تجارتها ويزدهر عمرانها وتتقدم صناعتها ويكثر إنتاجها الزراعى والحيوانى وغير ذلك من موارد البلاد ، فمنهم التجار الذين يقومون بالبيع والشراء والتصدير والاستيراد وما إلى ذلك، فيصدرون ما تنتجه البلاد من المنتجات المتنوعة كالزيوت والصابون والورق وغيرها (١) ومنهم الصناع الذين يقومون بصناعة الألبسة والأواني المستخدمة، والأسلحة المستعملة فى عدة الجهاد وغير ذلك .

ومنهم الزراع والفلاحون ورعاة المواشي وغيرهم من أرباب الحرف الذين

(١) كانت طبقة التجار مقرّبة أحياناً من السلاطين لأنهم كانوا يحسون بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسى الذى يمدّهم بالمال فى ساعات الحرج والشدة ، وكان كثير منهم يتمتعون بثروات طائلة خاصة تجار الرقيق الذين كان لهم مكانة خاصة وحظوة زائدة عند الأمراء فكانوا يقومون بتوريد ما يعجب السلاطين والأمراء وما يروقهم من الجوارى والغلمان ويغالون فى أثمانهم حتى يصل ثمن المملوك الواحد إلى خمسين أو مائة ألف درهم، وكانت تبرّد لهم البرد فتساق لجلبهم الخيول وتزعج النفوس : قال التاج " وكانت أئمة العدل لا تبرّد البرد إلا لمهم من مهمات الاسلام، والآن أكثر ماتهلك خيول البريد وتساق للأغراض الدنيوية من شراء الممالك وجلب الجوارى والأمتعة الزائدة وإذا ركب الفقيه فرساً أنكروا عليه وقالوا إن البريد لا يساق إلا لمهمات السلطنة كأنهم يعنون بمهمات السلطنة ما اعتادوه من شراء مملوك عليه أو استدعاء مغن حسن الصوت أو خراب بيت شخص أنهى هذه ملاحظة له . . إلى أمثال ذلك . . . "

معيد النعم ص ٣٢ .

كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان (١) .

وكان هو "لا" على كثرتهم هم الطبقة المغلوب على أمرها في ذلك العصر ، وكثيرا ما كانوا يجأرون من المغارم والمظالم التي كانت تحل بهم من الولاة والحكام آنذاك ، وما كانوا يلقونه من سلب ونهب من قطاع الطرق ، والسراق العابثين والمفسدين في طول البلاد وعرضها في أوقات كثيرة .

رابعاً : أهل الذمة :

هذه الطبقة تتكون من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم فـرق مختلفة وكانوا يؤدون الجزية مقابل ما تكفله لهم الدولة من الحماية والرعاية وفي بعض الأحيان كانوا يحاولون التنصل من أدائها بشتى السبل (٢) وكانت تقع

(١) وقد كان سلاطين المماليك يلزمون الفلاحين بفلاحة الأرض ويكرهونهم على ذلك ولا يرضون لفلاح أن يتحول عن مهنته خشية أن تبور الأرض الزراعية فيؤثر ذلك على إيرادات الدولة منها ، وهذا نوع من التضييق على الناس لا يصح أن يكون ، لذلك ، قال التاج رحمه الله منكراً على هو "لا" : ومقررنا حرية الفلاح فيما يختاره لنفسه " ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين فـى الاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لأد مى عليه وهو أمير نفسه .

قال : وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام أشد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده والبلاد تعمر بدون ذلك ، بل إنما تخرب بذلك لأنهم يضيّقون على الناس فيضيّق الله عليهم . . - انظر معيد النعم ص ٣٤ .

(٢) قال ابن كثير : " في سنة ٧٠٢ هـ عقد مجلس لليهود والزموا بأداء الجزية فاحضروا كتاباً معهم يزعمون أنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع الجزية عنهم ، فلما وقف عليه الفقهاء تبينوا أنه مكذوب مفتعل ، وقد حاققهم عليه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله وبين لهم أنه مزور مكذوب فأنابوا إلى أداء الجزية .

قال ابن كثير : وقد وقفت أنا على هذا الكتاب فرأيت فيه شهادة سعد بن معاذ عام خيبر وقد توفي سعد قبل ذلك بنحو سنتين . . . انظر البداية والنهاية ١٤ / ١٧ .

بينهم وبين المسلمين فتن ولكن سرعان ما تنتهى .

وهذه لطبقة تشارك المسلمين فى دفع عجلة الحياة . وتقدم البلاد فتشارك فى الزراعة والصناعة والحرف الأخرى وكان لها دورها فى التجارة وقد كسبت منها أموالا طائلة وأثرت ثراء كبيرا (١) ، وكانت تشارك أحيانا فى أعمال الحكومة المالية وقد برزت كثيرا فى هذا الجانب ووجد منهم الكثير من الأدباء فى النحو واللغة العربية وغير ذلك . ، وقد احتفظوا بنظمهم الخاصة فيما بينهم ، وتمتعوا بعطف السلاطين فى كثير من الأوقات .

(١) ذكر ابن كثير أن فضل الله بن الخير الهمداني كان أصله يهوديا

عطارا فتقدم بالطب وشملت السعادة وعلت رتبته ومكانته وحصل له من الأموال والاملاك ما لا يحصى ولا يوصف . .

انظر البداية والنهاية ٢٠٢/١٤ .

المبحث الثاني

فى البدع والخرافات السائدة فى ذلك العصر

قد عرفت كيف كان البناء الاجتماعى والثقافى فى العصر المملوكى متفاوت الطبقات غير أن طبقة العامة فى ذلك العصر وهم جمهور الأمة من المسلمين، كانت معتقداتهم وعقولهم فريسة للتشويه والانحراف للذين ضربا بساطة العقيدة الإسلامية فى نفوس الناس، وحل محلها كثير من الخرافات المتعلقة بتقدیس أضرحة الأولياء والمزارات المختلفة، وصاحب ذلك كثير من الممارسات والبدع السيئة ومن ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله فى تاريخه فى حوادث سنة ٧٥١ هـ حيث قال: " ومن العجائب والغرائب التى لم يتفق عليها من نحو مائتى سنة وأكثر، أنه اتفق فى هذه السنة إبطال الوقيد بجامع دمشق فى ليلة النصف من شعبان، وفرح أهل العلم بذلك وأهل الديانة فرحا شديدا، وشكروا الله تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنعاء التى كان يتولد بسببها ضرور كثيرة بالبلد قال: وكانت هذه البدعة قد استقرت بين أظهر الناس من نحو سنة خمسين وأربعمائة، وكسعى فيها من عالم وفقه وعابد وزاهد وأمير ونائب سلطنة وغيرهم، ولم يبسر الله إبطالها إلا فى عامنا هذا فله الحمد والعنة .

وكان قد استقر فى أذهان الجبهة أنه إذا أبطل هذا الوقيد فى عام، يموت سلطان الوقت وكان هذا لا حقيقة له، ولا دليل عليه إلا مجرد الوهم والخيال . . .

وذكر أنه فى سنة ٧٠٤ هـ فى رجب أمر الشيخ ابن تيمية رحمه الله أصحابه بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما . . . (١)

ومن البدع القبيحة أيضا ما كان يجرى في ذلك العصر من تقبيل الأرض
 بين أيدي الحكام والسلاطين أو الانحناء لهم بما يشبه السجود . . قال التاج :
 " ومن أقبح البدع المحرمة تقبيل الأرض بين أيدي الملوك فإنه من عظام
 الذنوب ويخشى أن يكون كفرا . . " (١)

المبحث الثالث

فى الناحية الاقتصادية آنذاك

كانت الحالة الاقتصادية فى البلاد فى هذا العصر تتراوح بين مد وجزر، رخاء وبؤس، فأوقات تخصب البلاد، وتكثر الأمطار، فيزداد الانتاج وترخص الأسعار وتتنوع الخيرات ويعم الرخاء والطمانينة والأمان والبركات فى كافة مرافق الحياة^(١)، وطورا تصاب الأمة بالجذب والقحط وقلة القطر، فتجف المياه وتشح الأرض وترتفع الأسعار وتحدث المجاعات الشديدة فى المجتمع فيموت من جرائها أقوام كثيرة ويهلك المزيد من المحرث والنسل، وأحيانا تحتاج البلاد كوارث مدمرة كأمراض الطواعين والزلازل والجراد، ونحو ذلك .

قال ابن كثير فى حوادث سنة ٦٩٥ هـ: "كان للغلاء والفناء بديار مصر شديدا جدا، والأقوات فى غاية القلة، والأسعار فى غاية الغلاء والموت عمال فى الناس على أشده، فكانوا يحفرون الحفيرة ويدفنون فيها الفئام من الناس، ووقع بالشام غلا فاحش، حتى قيل إن الحمير والخيول والبغال والكلاب

(١) وقد كانت الموارد المالية فى ذلك العصر تنحصر فى الزراعة والتجارة والصناعة والضرائب التى تفرضها الدولة على الأثرياء من الناس، ثم الغنائم التى كانت تؤخذ فى ثنايا معارك الجهاد مع أعداء الاسلام من التتار والصليبيين والفرنج وسائر الكفرة المحاربين .

وقد كان لهذه الغنائم المتتابعة مردودات مالية ضخمة ولكنها لم تكن توزع على مستحقيها، بل كان يحتجزها سلاطين الدولة وأمراء المعارك من العماليك ويعيشون بها حياة رغدة مليقة بالترف والبهذخ وسائر متع الحياة، قال التاج رحمه الله: "ومن قبائح أمراء الدولة أن الجندى يقاتل ويخاطر بنفسه فيقتل فى الحرب كافرا فلا يعطونه سلبه والنبي صلى الله عليه وسلم قد أعطاه إياه حيث قال: من قتل قتيلا فله سلبه" رواه البخارى ٦٧/٣، وهم يمنعون منه فيفترون بذلك عزائم الجنود، فان الجندى إذا عرف أنه يخاطر بنفسه فلا ينصف من عزمته، انظر معيد النعم ص ٥٣ .

فَنيت من أكل الناس لها ولم يبق شيء من هذه الحيوانات إلا أكلوه، وفي سنة ٧٠١ هـ قدم الشام جراد عظيم أكل الزرع والثمار، وجرَد الأشجار حتى صارت مثل العصي، ولم يعهد مثل هذا .

وفي سنة ٧٠٢ هـ وقعت زلزلة عظيمة وكان معظمها في الديار المصرية ولم ير مثلها في هذه الأعصار، وفي سنة ٧٤٥ حدث غلاء فاحش وقلة للأطيار وجفاف للأنهار، حتى كان المسافر لا يحصل على ما يشربه أو يسقى به فرسه إلا بكلفة شديدة .

وكانت أمراض الطوائع تفتك بالناس في أوقات كثيرة فيموت بسببها خلق كثير (١) وكان هذا المرض إذا دخل بيتا لا يكاد يخرج منه حتى يأتي على غالب أهله فإننا لله وإنا إليه راجعون (١) .

هكذا كانت حالة البلاد والناس بشكل عام، تعتورها هذه الظروف المتقلبة رخاء وشقاء، أما طبقة السلاطين والحكام فقد كانوا يعيشون في ترف وبذخ وأبهة زائدة رغم هذه الأحوال التعيسات فلم يكن يلسمهم مثل هذا الضنك والقلة بل هم لا يكادون يشعرون بشيء من ذلك لما كانوا يحتجرونه من الأموال والقطاعات وأثمان الأقوات من الذهب والفضة وغير ذلك .

قال التاج رحمه الله في حديثه عن هذه الطبقة وما كانوا عليه من الإسراف والخيلاء وتبذير الأموال في ضروب المعاصي والمحرمات، قال : " ومن قبائحهم ما يذهبون من الذهب في الأطرزة العريضة والمناطق وغيرها من أنواع الزراكش المحرمة، وزخرفة البيوت سقوفها وحيطانها بالذهب، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضيق سكة المسلمين . . وأنت إذا اعتبرت ما يذهب من الذهب في هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة لا يحصيها إلا الله تعالى ، ولو كان مضروبا سكة بيت أوله المسلمون لا تنتفعوا به وخصصت

البضائع وكثرت الأموال ، ولكنهم احتجروه وفعلوا كل هذه القبائح . . ولو أنهم اتقوا الله حق تقاته ، ووضعوه في مواضعه لما بقى في البلد جائع ولا محتاج . (١)

هذا هو وجه الحياة في العصر المملوكى بشكل عام . . ورغم ما امتاز به هذا العصر من الازدهار العلمى والحرص على إقامة المساجد وبناء المدارس والخوانق والأربطة والاتصاف بكثير من مظاهر التقوى ، إلا أن الأمراض الاجتماعية الفتاكه كانت تسرى وتنتشر في كيان المجتمع وقت ذاك ، حيث ظهر كثير من المنكرات واستشرى الفساد وعمت المعاصى وتعامل الناس بالرشوة وذاعت بينهم معتقدات باطلة توارثوها حتى غدت عندهم بمثابة السنن الثابتة (٢) .

وبعد فهذه ^{هي} بعض ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومظاهرها البيئة التي عاش فيها التاج السبكي رحمه الله . . نكتفى هنا بما أوردناه منها والله المستعان ، ثم ننتقل بعده إلى بيان الحالة العلمية والثقافية في ذلك العصر ضمن الفصل التالى . . .

(١) انظر معيد النعم ص ٥٠

(٢) كإقامة الموالد للأولياء والصلحاء وغيرهم وكالسحر والتنجيم والكهانة

وغير ذلك ، قال التاج في معيد النعم : " وقد كثر المنجمون والكهان والسحرة في زماننا هذا نعوذ بالله منهم " ثم اخذ يتكلم على هذه الفرق في الكتاب المذكور ص ١١٥ وما بعدها .

الفصل الثالث :

فى بيان الحالة العلمية والثقافية فى عصر التاج

وتحتة ستة مباحث :

المبحث الاول : فى تصوير النشاط العلمى ومطارحة العلماء فى ذلك
العصر

المبحث الثانى : فى التدرج فى التعليم .

المبحث الثالث : فى ذكر أسباب ازدهار الحياة العلمية آنذاك .

المبحث الرابع : فى اهتمام الأمراء بالعلم والعلماء .

المبحث الخامس : فى ظهور شخصية العلماء ودورهم فى جهاد التتار

المبحث السادس : فى الكلام على التقليد والتعصب المذهبى لدى طوائف
الناس .

المبحث الأول

فى تصوير النشاط العلمى ومطارحة العلماء فى ذلك العصر

إن القرن الثامن الذى عاش فيه التاج السبكى يعد امتداداً للقرن السابع الذى سبقه، وفى هذين القرنين انتعشت علوم الاسلام وكثرت التأليفات والمصنفات وبرز علماء أجلة فضلاً فى علوم الاسلام قاطبة (١)، وفى كافة الفنون وملاّت مؤلفاتهم أقطار الأرض شرقاً وغرباً وبلغت من الكثرة بحيث لا تحصى عدداً ولقد كان العلماء فى هذا العصر يمتازون بسعة العلم وصفاء الفكر ورحابة الصدر والمناقشة العلمية الجادة.

(١) وجد فى ذلك العصر من الفقهاء والمحدثين والمفسرين واللغويين — والمؤرخين نوابغ جهابذة أثروا المكتبات الاسلامية بمؤلفاتهم وقاموا بنشر العلم فى بلدان متعددة . فمن المحدثين مثلاً النووى، وابن دقيق العيد، والحافظ المزى والحافظ الذهبي والحافظ الديلمياطى، وآخرون، ومن أعلام الفقهاء والأصوليين: الأمدى وابن الحاجب، والعز بن عبد السلام والقزافى، وابن تيمية، وابن القيم، والاسنوى، والزركشى، وكثير من أفراد البيت السبكى، ومن النحويين والأدباء واللغويين ابن هشام الأنصارى، وابن مالك، وأبو حبان، وابن عقيل، وابن منظور صاحب اللسان، والفيومى صاحب المصباح المنير، والزبيدى صاحب تاج العروس، والصلاح الصفدى وغيرهم، ومن المؤرخين ابن خلدون، وابن خلكان، وابن كثير، والمقريزى، وإلى ما شاء الله . . . وكتبهم ومؤلفاتهم معروفة مشهورة لا نطيل الحديث بذكرها وإبراز مزاياها ومحاسنها فإنها فى متناول الجميع، كما نبغ فى هذا العصر أيضاً كثير من النساء الفضليات ومنهن على سبيل المثال الشيخة العابدات العالمة الصالحة زوجة الامام الحافظ جمال الدين المزى أم قاطمة قارئة القرآن، قال ابن كثير ١٤ / ١٦٤: " كانت عديمة النظير فى نساء زمانها لكثرة عبادتها وتلاوتها وقرأتها للقرآن العظيم بفصاحة وبلاغة وأداء صحيح، يعجز كثير من الرجال عن تجويده، قرأ عليها من النساء

فكان الواحد منهم يبحث المسألة من مسائل العلم المختلفة ويؤلف فيها كتابا حافلا مليئا بالحجج والبراهين يبدى فيها رأيه واجتهاده ، ثم يناضل عما ذهب إليه واختاره ، بكل ما يراه ، ويستطيع إيراد ، فيوافقه قسوم ويعارضه آخرون .

وقد يقوم المعارض فيصنف ردا وافيا على ما قرره الأول ، يحشد فيه من الأوجه والدلائل ما يقوى مذهبه ويضعف جانب خصمه ، وهكذا دواليك لا يخفت لهم صوت ، فمثلا : نجد شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يصدر فتواه فى مسألة الحلف بالطلاق فيرد عليه الشيخ الامام السبكي رحمه الله فى مصنف ضخم ، ثم يرد الشيخ ابن تيمية على رد القاضى السبكي فى مصنف آخر يقوى فتواه ويدحض حجج خصمه (١) .

ثم يفتى مرة أخرى فى منع شد الرحال إلى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيعارض السبكي ويصنف فى الرد عليه كتابا سماه " شفاء السقام " فى زيارة خير الأنام " .

ثم يرد على السبكي تلميذ ابن تيمية الشيخ محمد بن عبد الهادى المقدسى (٢) بكتاب حافل سماه " الصارم المنكى فى الرد على السبكي " وهكذا .

خلق عظيم توفيت رحمها الله سنة ٧٤١ ، ومنهن أيضا بنت التاج السبكي رحمه الله : قال السخاوى : " هى سالحة ابنة التاج عبد الوهاب بن على ابن عبد الكافى السبكي أجاز لها العز ابن جماعة وغيره ولقيها الزين رضوان فاستجازها قال السخاوى وأظن أننى قرأت عليها شيئا " وغيرهن كثير انظر الضوء اللامع ١٢ / ٧٠ .

(١) قال فى الطبقات . ١ / ١٩٥ : " وهذا الرد الذى لابن تيمية لم يقف عليه الوالد ولكنه سمع به ، وأنا وقفت منه على مجلد ، قال التاج : " وقد كان الشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله لا يعظم أحدا من أهل العصر كتعظيمه للشيخ الامام الوالد ، وكان كثير الثناء على مصنفه فى الرد عليه فى مسألة الطلاق " .

(٢) وقد كان الشيخ محمد بن عبد الهادى (ت ٧٤٤) أحد أذكى العالم : قال عنه الذهبى " ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه " انظر الدردر الكامن ٣ / ٣٣٣ .

فقد كان هذا العصر عصر علم ومطارحة ومساجلة بين العلماء وفيه من المناظرة وشحن الأذهان ما لم يكن في غيره .

وهذه الروح اليقظة لدى العلماء أدت إلى التبحر في العلم وصقل المواهب وتوسعة المدارك فأصبح في القوم جبال علوم .

وكان الواحد منهم يعد موسوعة علمية متكاملة في شتى فنون العلم والمعرفة مما أثرى الحياة العلمية في هذا العصر إثراء بالغاً ، وترك بصماته واضحة على القرون المتعاقبة بعده حتى الآن .

وفي ظل هذه الحركة العلمية النشطة ترعرع التاج السبكي ووجد طبقة من جهاذة العلماء تلقى على أيديهم ، وعب من أفكارهم وأخذ عنهم الكثير . فتكونت شخصية المتميزة الجامعة بين الفقه والأصول ، والحديث والأدب ، والتاريخ ، وغير ذلك .

هذا وقد كان لنظام التعليم في عصر التاج منهج قويم يسير عليه الطلاب والمعلمون ، وفق تدرج محكم سنو جزه ، إليك في المبحث التالي . . .

المبحث الثاني

التدرج في التعليم

لقد كان للانتعاش العظيم لعلوم الاسلام الذي برز في العصور المملوكي بعد الركود العميت الذي أصاب هذه العلوم إبان غزو التتار لعاصمة الخلافة بغداد، وإهلاكهم معظم تراث الاسلام وعلمائه وخليفته وولاته أثر واضح في حياة الناس من الخاصة والعامة .

فهذه المصيبة العظمى التي حلت بالاسلام وأهله وتراثه أيقظت في الأمة الحماس الديني وأشعلت في نفوسهم الغيرة على الاسلام وعلومه من جديد .

فانبرى علماء الامة لهذا الأمر وجاهدوا في تحقيقه وقاموا بتعويض ما فقد من تلك العلوم العظيمة عن طريق المدارس والتعليم ضمن منهج إسلامي أصيل يبدأ فيه بالأهم فالأهم في مسلسل محكم وترابط شديد يأخذ بعضه بحجز بعض، لكافة فنون العلم والمعرفة في ذلك العصر فكانوا لتعلم يبدأ أولاً بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظاً وتجويداً وتفسيراً، ثم يطلع على سائر علومه ويجتهد في اتقان كل ما يتصل بكتاب الله من علوم الآلة وغيرها لأنه أصل العلوم وأهمها وأهمها، ثم يعرج على بقية الفنون فيحفظ من كل فن مختصراً يعينه على الالمام بمعال ذلك الفن، ويشغل بشرح تلك المحفوظات على المشايخ حتى يتقنها جيداً (١) .

(١) قال التاج في معرض كلامه على المدرسين وكيف ينبغي أن يتدرجوا في تعليم الطلاب من الأدنى إلى الأعلى قال : " وحق على المدرس أن يحسن القاء الدرس وتفهييمه للحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات بل يدرهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة من التحقيق ، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ويخوض بهم عباها الزاخر . " انظر معيد النعم ص ١٠٥ .

فإن تحققت أهليته وتأكدت معرفته، وسَّع نظره في كافة الفنون، فلا يدع فنا من العلوم الشرعية إلا نظر إليه وتبحر فيه قدر وسعه وإمكانه .

ثم يشتغل بسماع الحديث النبوي، وعلومه وينظر في أسانيده ورجالهم ومعانيه وأحكامه وفوائده، ولغته وتواريخه، فيعيب من ذلك كله قدر طاقته واحتماله مبتدئاً بهم كتب صحيح البخاري ومسلم، ثم بقيه كتب السنة والأصول المعتمدة في هذا الشأن، ويعتني بمعرفة صحيح الحديث وحسنه وضعيفه ومسنداه ومرسله وسائر أنواعه رواية ودراية .

وهكذا سائر علوم الاسلام، من نحو وصرف وبلاغة وآدب وفقه وأصول وغير ذلك، فإذا كملت أهليته وظهرت فضيلته ومرعاه أكثر كتب الفن بحثاً ومراجعة ومطالعة استقل بعدئذ بالتصنيف وانتقل إلى مصاف المؤلفين وهكذا (١) .

(١) راجع في هذا المعنى تذكرة السامع والمتكلم ص ١٢١ وما بعدها، معيد

المبحث الثالث

في أسباب ازدهار الحياة العلمية في عصر المماليك

إن أهم هذه الأسباب في رأيي يعود إلى طبيعة نظام التعليم الاسلامي سواء في عهد المماليك أو في غيره من العصور الاسلامية المتعاقبة . فهو نظام فريد يتميز بالمرونة وتيسير طلب العلم لكل راغب فيه ولا غرامة في أن يكون المسلمون أحرص الناس على طلب العلم وتيسير وسائله فالقرآن والسنة مليقان بالنصوص التي تحت على ذلك .

وقد كان المسلمون ينشئون المساجد والجوامع للصلاة أينما حلوا وهي تبقى مفتوحة الأبواب لكل الناس وفي جميع الأوقات لا يمنع من دخولها والمكث فيها أحد ، فإذا قضيت الصلاة ، فلا حرج على من في المسجد أن يتكلموا فيما يشاؤون ، ويبحثوا ما يريدون ، فمن كان عنده علم بذله للناس في المسجد لمن أراد أن يستمع .

ومن هنا كانت المساجد والجوامع من كبريات المدارس التعليمية وكان الخيرون يوقفون على تلك المساجد أوقافا طائلة تكفي للقيام بمستلزماتها ومستلزمات الطلبة والمدرسين فيها من إعاشة وسكن ومراجع علمية وغير ذلك . ولم يكن التدريس ولا طلب العلم مقصورا على أهل البلد فقط ، فالاسلام نظام إنسانية شاملة لا وطنية محدودة ، . فللعالم من أي بقعة من بقاع الأرض أن يعرض علمه في المسجد ، وللطالب من أي قطر أن يستمع إلى من يشاء وإلى من يعجبه من العلماء والأساتذة وإلى المادة التي تروقه من مواد التعليم المختلفة .

نظام فيه ميزة فتح باب التعليم والتعلم على مصراعيه واطلاق الحرية العلمية للأستاذ والطالب جميعاً كما أن من هذه الأسباب أيضا أن فترة عصر المماليك جاءت بعد كارثة بغداد على يد التتار واستفصالهم بيت الخلافة

العباسية هناك ومحوهم آثار الفكر الثقافي الاسلامي برمته ، كما هو معروف في مصادر التاريخ من إبادة علماء الاسلام في تلك الكارثة المدمرة وإحراق كتبهم واجتثاث كافة مصادر العلم والتراث الاسلامي هناك واغراقه في البحر كما قد مر بك (١) ، فكان لهذا الفعل الهمجى رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه . فانبرى العلماء لذلك وتوافدوا على مصر والشام من كل حذب وصوب .

وحدب عليهم كثير من السلاطين و الأمراء ومنحوهم الامتيازات اللازمة والتشجيع الكامل من الناحيتين المادية والمعنوية خاصة في عاصمة الخلافة الجديدة " القاهرة " فازدهرت الحركة العلمية من جديد ونهضت من كبوتها كأقوى ماتكون بحثا وتدقيقا وتأصيلا وتصنيفا ، وسرى في المبحث التالي صوراً مشرقة من جهد ولاة الأمر في هذا السبيل .

(١) أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٦٧ وما بعدها حسن المحاضرة
 ٥٢/٢ النجوم الزاهرة ٧٢/٧ ، البداية والنهاية ١٣/١٠١ الطبقات
 ٢٧١/٨ .

المبحث الرابع

اهتمام الأمراء بالعلم والعلماء

لا أحد ينكر ما للأمراء من دور كبير فى تشجيع العلم والنهوض به فكم عصر ارتفع فيه العلم وكثر انتاج العلماء فيه بسبب أمراءه والعكس بالعكس وقد يما قيل (الناس على دين ملوكهم) .

فنلاحظ فى عصر المماليك ظاهرة تشجيع الأمراء للعلم والعلماء وعقد هم الندوات والمجالس العلمية الجامعة مما كان له أثر بارز فى دفع الحركة العلمية فى المجتمع، لذلك فقد انتشرت المدارس العلمية فى هذا العصر انتشـاراً واسعاً فى كافة أرجاء البلاد وكانت أغلب هذه المدارس متخصصة فى تدريس أنواع معينة من العلوم فبعضها كان لتدريس الفقه إما على المذاهب الأربعة كالمدرسة الصالحية^(١) وإما على مذهب معين من هذه المذاهب كالمدرسة العادلية الكبرى بدمشق ، وكانت وقفاً على تدريس الفقه الشافعى^(٢) .

وبعض المدارس كانت خاصة بتدريس الحديث النبوى فيوقفها منشؤها

(١) المدرسة الصالحية هى عبارة عن أربع مدارس للمذاهب الأربعة

بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤١ هـ آخر ملوك الدولة الأيوبية قال المقرئى : " وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة "

انظر الخطط ٢٠٩/٤ ، حسن المحاضرة ٢٠٥٥/٢ .

(٢) هذه المدرسة أول من أنشأها الملك نور الدين زنكى وتوفى ولم تتم

ثم أكملها الملك العادل سيف الدين وجعل لها الأوقاف الكثيرة وهى من اكبر المدارس الشافعية بدمشق .

وقد سكنها ودرس بها جلة من العلماء منهم التاج السبكي رحمه

الله ، انظر الدارس ٣٦٢/١ .

على المشتغلين بالحديث وعلومه كالمد رسة الأشرفيه (١) وغيرها .

وبعضها كان للتفسير أو القراءات أو غير ذلك . غير أن هناك من بين هذه المدارس مدارس كبرى كانت أشبه ماتكون بالجامعات في وقتنا الحاضر حيث يدرس بها مختلف العلوم والتخصصات من فقه و حديث وقراءات وتفسير ونحو وغيرها كالمد رسة الظاهرية بدمشق، وهى اليوم مقر المكتبة الظاهرية (٢) .

هذا وقد حرص العلماء على أن يلتزم المعلمون بتدريس فروع العلم التى بنيت المد رسة من أجلها وشدد بعضهم فى ذلك فاعتبر من لم يلتزم من المعلمين بتدريس ما نص عليه واقف المد رسة وتعداه إلى غيره من الدروس فإن ذمته لاتبرأ بذلك .

قال التاج رحمه الله : "وعندى أن الذمة لاتبرأ فى المد رسة الموقوفة" على الفقهاء إلا بالقاء الفقه ، فإن كان المدرس لايلقى الفقه رأساً فهو آكل حرام إن كان يأكل من أوقافها، وكذلك نقول فى مد رسة التفسير إذا ألقى مدرستها غير التفسير، ومد رسة النحو إذا ألقى مدرستها غير النحو وهكذا . .

فالأحوط من هذا كله الالتقاء من الفن الذى بنيت له المد رسة فإن الواقف لو أراد غير ذلك الفن لسماء ، وإن كان يلقي الفقه مثلاً فى مد رسة الفقهاء غالباً، ولكنه ينوع فى بعض الأيام فيذكر تفسيراً أو حديثاً أو غيره من

(١) وهذه المد رسة بناها الملك الأشرف مظفر الدين بن موسى العادل (ت ٦٣٥) ووقف عليها الاوقاف الكثيرة وجعل شيخها الشيخ تقى الدين بن الصلاح حيث افتتحها سنة ٦٣٠ وأملى بها الحديث، وكان من شرط الملك الأشرف فى الشيخ الذى يتولى هذه المد رسة أنه إذا اجتمع من فيه الرواية ومن فيه الدراية قدم من فيه الرواية ثم تولاها بعد ابن الصلاح هاد الدين ابن الخرستانى ثم أبو شامة ثم النووى ثم الفارقى ثم ابن الوكيل .

ثم ابن الزملكانى ثم المزى ثم تقى الدين السبكى ثم ابن كثير ثم شيخنا تاج الدين السبكى ، انظر الدارس ١ / ١٩ .

(٢) انظر الخطط ٢ / ٣٢٨ .

العلوم الشرعية بقصد التنويع على الطلبة وبعث عزائمهم فلا بأس غير أن -
الأحوط خلافه (١) .

هذا ومن المناسب هنا أن نذكر بعضا من هذه المدارس على سبيل
المثال لتوضيح الصورة وهي :

(١) المدرسة المنصورية : أنشأها الملك المنصور قلاوون الصالحى ورتب بها
دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة ودرسا للطب ودرسا للحديث
النبوى ودرسا للتفسير وميعادها وكانت هذه التداريس لايلىهم
إلا أجلة الفقهاء المعتمدين (٢) .

(٢) المدرسة الظاهرية بالقاهرة بناها الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢
وجعلها للشافعية والحنفية وجعل بها خزانة للكتب تشتمل على
أمهات الكتب فى سائر العلوم . وبنى بجانبها مكتبا لتعليم الأيتام
وأجرى عليهم الجرايات والكسوة .
قال المقرئى " وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة " (٣) وفيها
يقول أحد الشعراء :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى . . ومن يتعالى فى الثواب وفى الشناء
لقد ظهرت للظاهر الملك همة . . بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنا
وماهى إلاجنة الخلد أزلفت . . له فى غد فاختار تعجيلها هنا
المدرسة الفاضلية وهي للمالكية والشافعية وبها مكتبة عظيمة . (٣)

(١) انظر معيد النعم ص ١٠٢ .

(٢) انظر المقرئى ٣ / ٣٤٢ .

(٣) الخطط ٣ / ٣٤٠ وما بعدها : وانظر ايضا البداية والنهاية لابن
كثير ١٣ / ١١٦ ، ١٣٩ / ١ ، الدارس ٢ / ٢٩ وما بعدها .

- (٤) المدرسة العمرية الشَّيخية وهي من مدارس الحنابلة بدمشق أنشأها ابن قدامة وهي على ما قيل من أكبر مدارس دمشق يوجد بها ٣٦٠ خلوة وخزانة كتب مهمة وقد درَّس بها من أعلام الحنابلة عدد كبير (١)
- (٥) المدرسة الجوزية أنشأها أبو الفرج ابن الجوزي وهي من أحسن مدارس الحنابلة بدمشق .
- (٦) المدرسة الاقبالية تكامل بناؤها سنة ٦٢٨ وكان يوما مشهودا اجتمع فيه جمع كبير من المدرسين والمفتين، ببغداد، ورتب فيها خمسة وعشرون فقيهاً وجعل لهم الجوامع الدارة في كل شهر، والطعام في كل يوم، والحلوى في أوقات المواسم، والفواكه في زمانها، وخلع على المدرسين والمعידين والفقهاء يومئذ الخلع الكثيرة (٢) .
- (٧) المدرسة العادلية الصغرى أنشأتها بنت الملك العادل سيف الدين، ووقفت عليها أوقافا عظيمة وشرطت للمدرسة مدرسا ومعيدا وإماما وموذهنا و نوابا وقيما وعشرين فقيها .
- (٨) المدرسة العذراوية أنشأتها بنت أخ صلاح الدين الأيوبي قائم ببيت المقدس، وقد درس بها شيخنا التاج السبكي (٣)
- (٩) دار الحديث الناصرية بناها الملك صلاح الدين الأيوبي وتسمى دار الحديث البرانية، وبها الرباط الناصري الذي بناه الملك لنفسه بسفح قاسيون عقب فراغه منها .
- (١٠) دار الحديث السكرية : قال ابن كثير ١٦٠/١٤ "أكمل بناء هذه الدار سنة ٧٣٩ وبأشر مشيختها الحافظ شمس الدين الذهبي، وقرر

(١) انظر المقرئ ٣ / ٣٤٠ وما بعدها الدارس ١ / ١٩ وما بعدها ، ١ / ١٥٥ ،

١٥٩ / ١

(٢) الدارس ١ / ١٥٩

(٣) الدارس ١ / ٣٢٨

فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية وجامكية كل شهر سبعة دراهم ،
ونصف رطل من الخبز ، وقرر للشيخ ثلاثون رطلاً من الخبز ، وقرر فيها
ثلاثون نفراً يقرءون القرآن ، لكل عشرة شيخ ولكل واحد من القراء
نظير ما للمحدثين ، ورتب لها إمام وقارى حديث ونواب ، ولقارى -
الحديث عشرون درهما وثمان أواق من الخبز ، قال وجاءت فى
غاية الحسن فى شكالاتها وبنائها ووقف عليها الأوقاف العديدة .
وذكر أن الأمير شيخون فى سنة ٧٥٨ هـ ابتمى مدرسة هائلة وجعل
فيها المذاهب الأربعة وداراً للحديث ووقف عليها شيئاً كثيراً ، وقرر
فيها معالم لطلابها والمقرئين فيها (١) ، إلى غير ذلك من المدارس
ودور العلم وما أكثرها ، وانظر للمزيد كتاب الدارس للنعمى تجد فيه
بغيتك ، ولا شك أن هذا لعدد الوفير من المدارس العلمية ، التى
تدرس المذاهب المختلفة ، إلى جانب حلقات الأجلة من العلماء
الأئمة الجهابذة كان يخلق جواً علمياً ممتازاً لا يشعر الطالب فيه
بملل ولا فتور ، بل هو دافع قوى للاستزادة العلمية والبحث
والموازنة والتحقيق والتحرير .

نخلص من هذا أن الاضطراب السياسى والهرج والمرج الذى كان
سائداً فى عصر المماليك بسبب الحروب الخارجية والفتن الداخلية لم
يؤثر على الحياة العلمية فى شىء ، بل ظلت نشطة وقائمة على قدم
وساق ، وقد ساعد على نشاطها أن حكام ذلك العصر الذين كانوا يحكمون
دولة الاسلام كانوا غيورين على الاسلام الذى يحاربه التتار فى الشرق
ويقتلون علماءهم ويثقلون كتبه ، كما كان يفعل ذلك الصليبيون فى الغرب (١) .

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٦٠ ، ١٤ / ٢٢٢

(٢) انظر الدرر الكامنة ٤ / ٣٨ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤٦٥ .

لذلك فقد أحاط هؤلاء الحكام أنفسهم بكوكبة من علماء الأمة وشجعوا المشتغلين بالعلم وأجزلوا لهم المكافآت وأكثروا من بناء المدارس، وخزائن الكتب، الملحقة بها ومساكن الطلبة ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة كما قد عرفت .

ولقد كان للدولة الأيوبية يد طويلة في بناء المدارس العلمية المتكاثرة في طول البلاد وعرضها، وكان عندهم من حب العلماء واحترامهم ورفعة شأنهم ما لا نظيل بذكره ، ثم سار سلاطين المماليك على نهج ملوك بني أيوب وإن لم يكن بنفس القوة ، لذلك كثرت المنشآت التعليمية التي كانت تتناول التعليم في جميع مراحلها من أوله إلى منتهاه كما قد مر بك ^(١) .

(١) وقد أسهمت المساجد والجوامع إسهاما عظيما ومباركا في هذه الناحية فكانت تقام فيها حلقات العلم والتدريس ويفد إليها الطلاب من جميع الجهات ، ومن أهمها جامع عمر بن العاص الذي أسسس بمدينة الفسطاط بعد الفتح الاسلامي لمصر وقد اتسعت الدراسة بهذا الجامع في عصر التاج حتى بلغت على ما قيل في عام ٧٤٩ بضعا وأربعين حلقة لأقراء العلم : كما ذكره المقريزي ٢٣٥/٢ وهناك الجامع الأزهر وجامع ابن طولون وغيرها من مساجد مصر العامرة ، وفي الشام الجامع الأموي بدمشق وهو أكبر مؤسسة تعليمية في ذلك الوقت فقد كان به عدد وفير من الحلقات العلمية التي تشتغل بالعلم وتدرس القرآن الكريم والحديث الشريف وعلومهما ، كما كان به عدد ضخم من المدارس المتخصصة في شتى فنون العلم والمعرفة وصار هذا الجامع مفخرة العلم والعلماء في ربوع الشام في ذلك العصر وما قيل في وصفه :

كأن حيطانه زهر الربيع فما .. يملأ الطرف فهو الدهر منظور
يتلى القرآن به في كل ناحية .. والعلم يذكر فيه والتفاسير

انظر كتاب الدارس ٢١٣/١ ، ٤٦/٢ ، البداية والنهاية ٢٧٥/١٤ ،
الدرر الكامنة ٤٤٠/٤ .

المبحث الخامس

فى ظهور شخصية العلماء ودورهم فى جهاد التتار

تميز العصر المملوكى بعلماء أجلة اتصفوا بقوة الشخصية ومن ثم التأثير على الأمراء وردهم إلى جادة الصواب كلما حاولوا انتهاك حقوق المسلمين، وعدم السكوت والخضوع لهم، إذا خرجوا عن إطار الشرع الشريف، وقد نقل لنا التاريخ نماذج عالية من مواجهة العلماء للحكام فى هذه الفترة فالعز ابن عبد السلام رحمه الله يصم على بيع الممالك وهم أمراء الدولة (١) ويمنع السلطان قطز من الاقتراض من أموال التجار إبان معركة عين جالوت، والامام النووى يأمر السلطان باخراج عدة الجهاد من مقتنيات دار السلطنة ويمنعه من فرض ضرائب أو أخذ أموال من سائر الرعية إلا بعد نفاذ ما فى حوزته (٢)، وشيخ الاسلام ابن تيمية يشن حملة شعواء على من تقاعس من الأمراء عن حرب التتار ويفتى العامة بوجوب جهادهم باعتبارهم خوارج مارقين عن دولة الاسلام ثم يتقدم صفوف الجهاد فى بعض المعارك (٣).

(١) قال التاج " وكانت لمعظمة عندهم وهيبة بحيث لا يستطيعون مخالفته " انظر الطبقات ٢١٥/٨ .

(٢) راجع الطبقات ٣٩٥/٨ وما بعدها .

(٣) حين وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام سنة ٧٠٠ هـ انزعج الناس لذلك جداً وطاشت عقولهم وألباهم وشرعوا فى الهرب، فانبرى شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يحرض الناس على القتال وينهاهم عن الفرار ويرغبهم فى الانفاق فى سبيل الله وصد الأعداء عن بلاد المسلمين قال ابن كثير: " فهدأ الناس عند ذلك وسكن جأشهم وطابت قلوبهم بما رأوه منه واشتعلت فيهم روح الجهاد فوعدهم النصر والظفر على الأعداء ثم ذهب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجىء إلى دمشق ومنازلة التتار فأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان والوزراء وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج : قال وفى سنة ٧٠٢ وقعت معركة

والشيخ تقى الدين السبكي وولده تاج الدين ينكران على الحكام
والأمراء ما هم فيه من الترف والبذخ والأبهة الزائدة ويحثانهم على إنفاق ذلك
فى جهاد أعداء الاسلام من اليهود والنصارى وأهل الأهواء من الزنادقة
والرافضة وغيرهم (١).

شديدة تسمى وقعة شقحب بين المسلمين والتتار فانتصر المسلمون
بقيادة الشيخ ابن تيمية على التتار وهزموهم شر هزيمة وتحقق نصر
الله على يده رحمه الله ورضى عنه . . .
انظر البداية والنهاية ١٣/١٤ وما بعدها .
(١) انظر للتدليل على ذلك الطبقات ٢/٥٩، ١٠٠، ١٦٨، ١٠٠، ٢٠٨،
معيد النعم ص ١٢، ٢٢، ٢٤، وما بعدها .

المبحث السادس

فى ذكر التقليد والتعصب المذهبى

على الرغم من أن القرن الثامن الهجرى يعد بحق فخرا للعلم والعلماء لما واكبه من نبوغ علمى فريد فى كافة التخصصات العلمية إذ ازدهرت فيه الناحية العلمية وبلغت أوجها وظهر على إثر ذلك علماء أجلاء فى كافة فنون العلم والمعرفة إلا أن روح الابتكار والتجديد لم تواكب هذا الحماس العلمى النشط، فالناظر فى مؤلفات هذا العصر يلحظ أنها كانت تحصيليا لما سبقه من كتب الأقدمين فكانت كلها أو جلها لا تعدو أن تكون اختصارا أو شرحا أو تلخيصا لكتب الأولين ولعل سبب شيوع هذه الظاهرة فى ذلك العصر أن - العلوم الشرعية واللغوية كانت قد نضجت وأفعمت بمؤلفات السابقين ومصنفاتهم فلم يبق مجال لعلماء هذا العصر إلا الاختصار والشرح والتعليق وتبسيط هذه العلوم وضياعها بلغة العصر .

ولا يعنى هذا أنه لم تظهر فى هذا العصر مؤلفات قائمة بذاتها - وفيها تجديد وابتكار بل قد وجدت مؤلفات من هذا النوع ولكنها ليست كثيرة كـ بعض مؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والحافظ الذهبي والتقى السبكي وغيرهم .

لكن الغالب الأعم من مصنفات هذا العصر لا يعدو أن يكون تابعا لما تقدمه من المصنفات ولذلك فقد كان العلماء شديدي التمسك بما ورثوه من مذاهب الأئمة عاضين عليه بالنواجذ ، وفى هذا المعنى يقول التاج السبكي رحمه الله مغتبطا بانتماؤه إلى المذهب الشافعى :

" ونحن نحمد الله تعالى الذى جعلنا مقلدين لإمام إذا طمحت نفوسنا فى وقت من الأوقات إلى النظر فى دليل مسألة من مسائله أدا أنا النظر

إلى ما كنا مقلدين له فيه ، فإن ذلك مما يشرح الصدر ويطمئن القلب على ما نحن عليه من تقليدنا لهذا الامام . . . (١) .

وهذا من العلماء أمر محمود أن ينظروا في مآخذ الأئمة ودلائلهم في مسائل العلم المختلفة فيصلوا إلى النتيجة نفسها أو غيرها ، ولكن هذه الأهلية ليست بالأمر اليسير بل هي عقبة كأداء لا يقتحمها إلا جهابذة العلماء ، وأما سائرهم ممن شدا طرفا يسيرا من العلم فيكتفون بالتقليد ، وهذا لا غبار عليه ، إن لم يصاحبه الاعتقاد الجازم بأن ما عليه إمامهم هو الحق ، وما خالفه فهو مردود ، وإن كان الدليل بجانبه فهذا هو التعصب الأعمى (٢) وهذا النوع من الناس لا تجدى معه مناقشة ولا ينفعه حوار ولذلك فقد حاول كثير من العلماء معهم فلم يفلحوا وبقي الأمر على ما هو عليه .

قال العز بن عبد السلام في قواعده : " ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ومع هذا يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه جموداً على تقليد إمامه .

قال : " فالبحث مع هؤلاء ضائع مفض إلى التقاطع والتدابير من غير فائدة يجديها ، وما رأيت أحداً رجع عن مذهب إمامه إذا ظهر له الحق في غيره . فالأولى ترك البحث مع هؤلاء " (٣) .

ويقول التاج رحمه الله منكراً على هذا الصنف من الناس : " ومن العلماء من تأخذه في الفروع الحمية لبعض المذاهب ويركب الصعب والذلول في التعصب لها وهذا من أسوأ أخلاقه ، ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض ، إلى غير ذلك مما يستقبح

(١) انظر الطبقات ٣/٤ ٣٤٣ .

(٢) لان الواجب هو اتباع الدليل أينما كان ومع من كان إذ هو الذي أوجب

الله اتباعه وحرم مخالفته وجعله الميزان الراجح بين العلماء فمن كان بجانبه كان أسعد بالصواب ومن حاد عنه زلت به القدم وأخطأ في المرام .

(٣) انظر القواعد الكبرى ٢/١٣٥ .

ذكره . . . (١)

فانظر كيف ضرب التقليد والعصبية المذهبية أدمغة كثير من الفقهاء
وأَتباع المذاهب فتحجرت أفكارهم واشتد تعصبهم لأقوال الرجال .
وكانت نتيجة ذلك شيوع الارهاب الفكرى وانتشار الاختلافات
العقائديه والمنازعات المذهبية وما صاحبها من خصومات واضطرابات فى علاقات
الأفراد والجماعات حتى صارت الجماعات فى المسجد الواحد تتعدد حسب
الانتماءات المذهبية ، نعوذ بالله من الخذلان .

وبعد . .

فهذا هو الجو العلمى المشرق الذى نشأ فيه التاج السبكى رحمه
الله وهذه بعض ملامح الحياة العلمية التى كانت تسود عصره آنذاك . . فلاغربة
إذاً أن يبرز هذا العملاق ويشارك فى هذا المعترك العلمى المتقد بترائمه
الخالد ومولفاته العظيمة فى شتى العلوم والمعارف والتى باتت مفخرة من
مفاخر العصر ومشعل ضياء للأجيال اللاحقة .

الباب الثاني

في دراسة حياة التاج السبكي وكتابه والمكانة العلمية التي وصل إليها

وتحتة سبعة فصول :

الفصل الأول :

فى حياتـه العلمـية

وفيه سبعة مباحث :

- المبحث الأول : فى مولده
- المبحث الثانى : فى اسمه ونسبه
- المبحث الثالث : فى نشأته وطلبه للعلم
- المبحث الرابع : فى عقيدته
- المبحث الخامس : فى شيوخه
- المبحث السادس : فى تلاميذه
- المبحث السابع : فى ثناء العلماء عليه

المبحث الأول

مولده

اختلف المؤرخون في مولد التاج السبكي رحمه الله فذكر ابن حجر والشوكاني (١) أنه ولد عام ٧٢٧ هـ وذكر الزبيدي والسيوطي أنه ولد عام ٧٢٩ هـ بالقاهرة (٢) .

والأكثر على أن ولادته كانت عام ٧٢٨ هـ وقد نص على هذا شيخه الحافظ شمس الدين الذهبي في المعجم المختص (٣) ، وبذلك يوافق مولده عام موت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله كما وافق مولد الامام الشافعي عام موت الامام أبي حنيفة رحمه الله تعالى (٤) وهذا من توافقات الأقدار فسبحان الذي قدر فهدى، وأمات فأحيى

فما أن يموت علم من أعلام الاسلام إلا ويبعث الله على إثره علما آخر يقوم برفع راية الدين ، وتوضيح سبل الهداية واليقين .

إذا مات منا سيد قام سيد .. قوول لما قال الكرام فعول

-
- (١) انظر الدرر الكامنة ٢/٤٢٥ ، البدر الطالع ١/٤١٠ ، شذرات الذهب ٢٢١/٦ .
- (٢) راجع تاج العروس ٧/١٤٠ حسن المحاضرة ١/٣٢٨ .
- (٣) انظر ذلك ص ١٥٢ وراجع الثغر البسام ص ١٠٥ ، فهرس الفهارس والاشباه ٢/١٠٣٧ ، كتاب الوفيات ٢/٣٦٣ .
- (٤) كان موت أبي حنيفة وولادة الشافعي في عام ١٥٠ هـ .

المبحث الثاني

اسمه ونسبه

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي
ابن تمام بن يوسف بن يحيى بن عمر بن عثمان بن علي بن سوار بن سليم السبكي^(١)،
وبعضهم يزيد الخزرجي الأنصاري ، وقد وردت هذه الزيادة في نسخة (ب)
من كتابنا هذا (٢) .

واعتمد لها كثير من العلماء والشعراء، فأوصلوا نسبته إلى الأنصار ومن
هو " لا الشاعر ابن نباتة، والصلاح الصفدي وآخرون (٣) .

قال التاج في ترجمة والده : " وقد كانت الشعراء يمدحونه ولا يخلون
قصائد هم من ذكر نسبته إلى الأنصار وهو لا ينكر ذلك عليهم . وقد كان رحمه
الله أروع وأتقى لله من أن يسكت على ما يعرفه باطلا، وقد قرأ عليه شاعر العصر

- (١) قال الزبيدي في تاج العروس مادة (سبك) والسبكي نسبة إلى سبك قرية
من أعمال المنوفية بمصر وتعرف الآن بسبك الأُحد منها شيخنا تقي الدين
علي بن عبد الكافي السبكي . . .
- (٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/٤٢٥، البدر الطالع ١/١٠٤ شذرات
الذهب ٦/٢٢١، الاعلام ٤/١٨٤ حسن المحاضرة ١/٣٢٨، تاج
العروس ٧/١٤٠، الشجر البسام ص ١٠٣، النجوم الزاهرة ١١/١٠٨،
الدارس في تاريخ المدارس ١/٣٧، المعجم المختص ص ١٥٢ .
- (٣) ذكر التاج أن الشيخ الصفدي ترجم لوالده في كتاب (أعيان العصر)
فقال عنه " قاضي القضاة أُوحد المجتهدين تقي الدين أبو الحسن
الأنصاري الخزرجي السبكي الشافعي . . . "، إلى آخر الترجمة : وذكر
قصيدة ابن نباتة التي رثا بها الشيخ الامام وفيها قوله :
نعاه للفضل والعليا والنسب . . ناعيه للأرض والأفلاك والشهب
وقال موت فتى الأنصار مغتبطا . . الله أكبر كل الحسن في العرب
انظر الطبقات ١٠/٩٣ وما بعدها ١٠٠/١٥١ .

ابن نباتة غالب قصائده التي امتدح بها وفيها يذكر نسبته إلى الأنصار والشيخ الإمام يقره، وسمع له قصيدته التي يقول له فيها :

من بيت فضل صحيح الوزن قدر جحت . . به مفاخر أباء وأبناء
قامت لنصرة خير الأنبياء طبا . . أنصاره واستعاضوا خيرا بأبناء
المعربون بالفاظ ولحن طبا . . ناهيك من عرب في الخلق عربا

إلى آخر القصيدة المذكورة ، وكتب عليها طبقة السماع بخطه ، ولولا أنه رأى ذلك حقا ما كتبه بخطه لما أعلمه من ورعه وشدة في ذلك . . .

وذكر التاج في موضع آخر من الطبقات مانصه : " نقلت من خط الجد رحمه الله نسبتنا معاشر السبكية إلى الأنصار رضى الله عنهم .

قال : وقد رأيت الحافظ النسابة شرف الدين الديماطي رحمه الله يكتب بخطه للشيخ الإمام الوالد رحمه الله " الأنصارى الخزرجى " . . .
ثم قال : ولم يكتب الشيخ الإمام رحمه الله بخطه لنفسه الأنصارى قط ، وإن كان شيخه الديماطي يكتبها له ، وإنما كان يترك الشيخ الإمام كتابة ذلك لفور عقله ومزيد ورعه ، فلا يرى أن يطرق نحوه طعن من المنكرين ولا أن يكتبها مع احتمال عدم الصحة خشية أن يكون قد دعا نفسه إلى قوم وليس منهم " (١)

وكلام المصنف رحمه الله ، يفهم أنها نسبة صحيحة وإن كان أبوه قد ترك كتابتها لنفسه ورعا . بل إن المصنف قد صرح بذلك في ترجمته لوالده فذكر أنه من عصابة الأنصار حيث يعرف في الحساب التليد .

وقال : " ما ساد أحدنا وأه ولا كان ذا استبصار . . ولا ساخ قدم فتى قام بنصرته وقال أنصربقية الأنصار . . " (٢)

(١) انظر الطبقات ٩١ / ١٠
(٢) المرجع السابق ١٤٤ / ١٠

ثم ذكر فيه قول القاضي ابن فضل الله العمري من قصيدة يمدحه فيها :
 قاضي القضاة بعلمه وضح الهدى . . . وبجوده ووجوده قاضي النـدى
 نصر النبي محمدا بجـداله . . . وجدوده نصروا النبي محمدا (١)
 وعلى كل حال فلو كانت النسبة أنهم أشرف لكان للشك فيها وجـه
 قوى لأن من يدعي النسبة إلى آل البيت لا يكادون يحصون عدا . لكن الاكتفاء
 بالنسبة إلى الأنصار دون آل البيت يجعلها أقرب إلى الصدق (٢)

(١) المرجع السابق ١٠ / ١٤٥ .

(٢) ومهما يكن من أمر :

فلو لم تكوني بنت أكرم والد . . . لكان أباك الضخم كونك لى أما

المبحث الثالث

نشأته وطلبه للعلم

نشأ التاج السبكي رحمه الله في بيت علم وفضل وديانة ونباهة وسعد كبير، فأبوه قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وبحسبك هذا تنبيهها على نباهة بيته وشرف منصبه .

لذلك فقد هيا الله تعالى له أسباب التحصيل على يد والده الشيخ الامام منذ أن بدأ يعرف يمينه من يساره، فعب من العلوم ونهل في بدايته حياته وشب عن الطوق واستوى على ساقه وهو في هذا الجو العلمي المبارك، وكان لتوجيه والده له توجيهها علميا صادقا أثر كبير في نبوغه وتفوقه . . فقد غرس فيه حب الجد والاجتهاد، والمحافظة على الوقت والتعود على السهر في مذاكرة العلم (١) ووضعه نصب عينيه في كل شئونه .

واستمع إليه يقول عن والده :

" وكان الشيخ الامام رحمه الله ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل ويقول لي يا بني تعود على السهر ولو أنك تلعب والويل كل الويل لمن رآه نائما وقد انتصف الليل . . (٢)

هكذا كان يقوم على تربيته رحمه الله خير قيام بعناية وحسب شديد، ويسدى له خالص نصائحه (٣) فتعود رحمه الله على استثمار الوقت

(١) وينشأ ناشئ الفتيان فينا . . على ما كان عوده أبوه

(٢) انظر الطبقات ١٠/١٧٧، ١٠/٢٠٣ .

(٣) ومن ذلك قوله :

أبني لا تهمل نصيحتي التي . . أوصيك واسمع من مقالى ترشد

احفظ كتاب الله والسنن التي . . صحت وفقها لشافعي محمد

واعلم أصول الفقه علما محكما . . يهديك للبحث الصحيح الأيد

فى الدأب والتحصیل وأن لا يأخذ من النوم إلا ما كان من قبیل الضرورة .

على هذا الصنع البهى صنعه والده الشيخ الامام، وقد كان هو
أستاذہ الأول وشيخه المقدم، وبه تخرج فى كافة العلوم التى حصلها فورث عنه
العلم والعمل، والعزة والنبيل، والخلق الرفيع، وكان والده فى زمنه ممن تشد
إليه الرحال لطلب العلم، وقد رباه فى حجره لا يكاد يفارقه، وفوق ذلك كان يرسله
إلى العديد من شيوخ العصر وجهابذته، يختلف إلیهم بكرة وعشيا كأمثال
الحافظ المزى والذهبي وابن النقيب وغيرهم (١) .

ولنصغ إليه يتحدث عن نفسه ويصف تردده على شيوخه رحمه الله حيث
يقول: " وقد كنت كثير الملازمة لشيخنا الذهبي أمضى إليه فى كل يوم مرتين
بكرة والعصر، وكنت أختلف إلى المزى مرتين فى الأسبوع " .

ثم يذكر سبب تردده على الذهبي أكثر فيقول: " وسبب ذلك أن الذهبي
كان كثير الملاطفة لى، والمحبة فى، بحيث يعرف من عرف حالى معه أنه لم يكن
يحب أحدا كمحبته فى، وكنت أنا شابا فيقع ذلك منى موقعا عظيما .

== وتعلم النحو الذى يدنى الفتى .. من كل فهم فى القرآن مسدد
واسلك سبيل الشافعى ومالك .. وأبى حنيفة فى العلوم وأحمد
وخذ العلوم بهمة وتغطس .. وقريحة سمحاء ذات توقد
واستنبط المكنون من أسرارها .. وابحث عن المعنى الأسد الأرشد
واتبع طريق المصطفى فى كل ما .. يأتى به من كل أمر تسعد
واقصد بعلمك وجه ربك خالصا .. تظفر بسبل الصالحين وتهتدى
إلى آخر القصيدة - انظر الطبقات ١٠ / ١٧٧ .

(١) هو* بعض مشايخه الذين تلقى عليهم بالشام وكان فى مصر قد تلقى
على كوكبة من كبار علمائها ذكرا بن حجر فى الدرر ٢٥ / ٤٢ أنه أجاز له
ابن الشحنة ويونس الدبوسى، وأسمع على عبد المحسن الصابونى وابن
سيد الناس وصالح بن المختار وعبد القادر بن المملوك وغيرهم من علماء
مصر والقاهرة قبل أن يرحل مع والده إلى الشام سنة ٧٣٩ هـ
انظر البدر الطالع ١ / ٤١٠ .

وأما المزي فكان رجلا عبوسا مهيبا، وكان الوالد يحب لو كان أمري -
 بالعكس، أعني يحب أن أأزم المزي أكثر من ملازمة الذهبي، لعظمة المزي عنده
 وكنت إذا جئت غالبا من عند شيخ يقول: هات ما استفدت، ما قرأت، ما سمعت،
 فأحكي له مجلسي معه، فكنت إذا جئت من عند الذهبي يقول جئت من عند
 شيخك، وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحفازي يقول جئت من جامع
 تنكر، لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه، وإذا جئت من عند الشيخ
 شمس الدين ابن النقيب يقول جئت من الشامية، لأنني كنت أقرأ عليه فيها. وإذا
 جئت من عند أبي العباس الأندلسي، يقول جئت من الجامع لأنني كنت أقرأ عليه
 فيه وهكذا.

وأما إذا جئت من عند المزي فيقول جئت من عند الشيخ ويفصح بلفظ
 الشيخ ويرفع بها صوته، وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبت في قلبي
 عظمته ويحثني على ملازمته

ثم قال: "وشغرت مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فنزلني فيه فعجبت من
 ذلك فإنه كان لا يرى تنزيل أولاده في المدارس.
 وها أنا لم أَل في عمري فقاها في غير دار الحديث، ولا إعادة^(١) إلا عند
 الشيخ الوالد وإنما كان يوء خرنا إلى وقت استحقاق التدريس على هذا ربانا
 رحمه الله، فسألت فقال لي قال إنك كنت فقيها عند المزي.

قال التاج: ولما بلغ المزي ذلك أمرهم أن يكتبوا اسمي في الطبقة العليا،

(١) المعيد هو الذي يعيد الدرس بعد إلقاء الشيخ له على الطلبة فكانه
 معين للشيخ على تفهيم الدرس للطلبة وتشبيته في أذهانهم ومعين
 للطلبة أيضا في إعادة المحفوظات والمراجعة في المذاكرات فهو
 دون الشيخ وأعظم درجة من عامة الطلبة.
 انظر معيد النعم ص ١٠٨.

فبلغ ذلك الوالد فانزعج وقال : خرجنا من الجد إلى اللعب، لا والله عبد الوهاب شاب ، ولا يستحق الآن هذه الطبقة، اكتبوا اسمه مع المبتدئين فقال له شيخنا الذهبي، هو والله فوق هذه الدرجة " وهو محدث جيد " ، هذه عبارة الذهبي فضحك الوالد وقال : يكون إذا مع المتوسطين . . " (١) .

هكذا رحمه الله بدأ سطوع نجمه في حياة والده فنضج قبل أناته وبرز على أقرانه ، فمهر في الفقه والأصول والحديث والتاريخ والأدب والعربية وغيرها ، وهو في ريعان شبابه ، وكان ذا بديهة نادرة وقريحة متوقدة ، شبيهها بأبيه في العلم والنجابة (٢) ، ولو مد الله في حياته لبلغ مبلغ أبيه وزاد في شتى فنون العلم والمعرفة، ولكنه رحمه الله رغم قصر عمره قد صار نجيبا مرموقا يشار إليه بالبنان، وقد بارك الله له في عمره فأخرج للناس العديد من التصانيف البديعة النافعة، قرئت عليه وانتشرت في حياته وبعد موته .

(١) انظر الطبقات ٣٩٩/١٠ .

(٢) قليلا ما يكون أولاد العلماء كأبائهم في النجابة والتحصيل وذلك لأن العلماء في الغالب الأعم يكونون مشغولين بعلمهم وتكميل أنفسهم ، فلا يتفرغون لتكميل أولادهم ، فمن كان من أولادهم فيه فطنة وذكاء ورزق توفيقا من الله تعالى يجعله يقبل بقلبه على والده فإنه يحصل له الخير الكثير، ويكون ذلك أسهل عليه وأيسر، لأنه بين يدي والده صباحا ومساءً، وفي حجره ومعه حال يقظته ونومه، وهو يود له الخير أكثر من نفسه، فحري به أن ينال من العلم ما لم يناله غيره، ممن ليس كذلك، وقد كان التاج السبكي رحمه الله من هؤلاء القلائل، وكان مع والده بهذه المثابة من أمره، فلا غرو أن يبلغ في العلم شأوا يتقاصر عنه غيره .

المبحث الرابع

عقيدته

من المعلوم استفاضة أن العقيدة الأشعرية هي التي كانت تسيطر على أغلب سواد الأمة في زمان التاج السبكي .

وقد كان المصنف رحمه الله . . أحد أقطابها فهو أشعري جلد في أشعريته لا يهادن فيها ، ومن يقرأ كتابه الطبقات يجد من ذلك عجا عجابا ، والمعروف أن أكبر المعارك المحترمة بين الأشاعرة وعلماء السلف إنما كانت حول قضايا صفات الباري سبحانه وتعالى ، فالأشاعرة لهم في ذلك طريقان ، طريق التأويل ، وطريق التفويض ، مع اعتقاد التنزيه ، كما قال قائلهم :

وكل نص أوهم التشبيها . . أوله أو فوض ورم تنزيها

فيما عدا سبع صفات تقريبا يذكرونها في كتبهم ويحكون إثباتها باعتبارها صفات ذات ، عددها صاحب الزيد في قوله :

حي مريد قادر علام . . له البقاء والسمع والكلام

وقال آخر :

حي عليم قدير والكلام له . . فرد سميع بصير ما أراد جرى (١)

وعلماء السلف لا يرتضون كلا الطريقين ، بل يثبتون لله تعالى كل صفة جاءت في الكتاب أو السنة إثباتا حقيقيا ، ويعتقدون معانيها كما وردت بها لغة العرب ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل . . كما قال تعالى : " ليس كمثله شيء " وهو السميع البصير (٢) .

وهذا هو الصواب وهو الذي درجت عليه القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، قرنا بعد قرن ، إلى أن جاءت عصور التأويل المتأخرة .

(١) انظر الطبقات ٣٤٣/١٠ .

(٢) الشورى آية (١١) .

ولكن مما يهون الخطب أن هذا الاختلاف إنما هو اختلاف في الطريق
المؤدى إلى التنزيه لا في حقيقة التنزيه ، فإن الكل مجمعون على تنزيه
الله سبحانه وتعالى عن الأكفاء والأمثال ، لذلك فقد قرر الشاطبي رحمه الله
في كتابه الموافقات أن هذا الاختلاف إنما هو من قبيل الاختلاف في الفروع (١)
ولا يعد اختلافا في الأصول ، إذ الأصل وهو التنزيه مجمع عليه .

(١) راجع الموافقات ٩٧/٣ .

المبحث الخامس

شيوخه

حظي التاج السبكي رحمه الله في مسيرته التعليمية بشيوخ أجلاء، فتتلمذ على أكابر علماء عصره ممن كان لهم دوى هائل في الحياة العلمية آنذاك فعب من معينهم، وتأثر بأخلاقهم، واقتدى بهم في العلم والعمل، وكان أكثرهم تعلّماً له وتأثيراً في شخصيته والده الشيخ تقي الدين السبكي، العالم الجليل، الذي كان يشار إليه بالبنان في ذلك العصر، فقد تربي في حجره ولازمه ملازمة ظلّه منذ نشأته، وإلى أن قضى نحبه رحمه الله، كما أخذ الكثير عن غيره من كبار شيوخ عصره، كآبي حيان، وابن النقيب، وابن سيد الناس، وزينب بنت الكمال، وآخرين وسنكتفي هنا بترجمة أربعة من أبرز شيوخه، وهم المزي، والذهبي، وأبو حبان، ووالده الشيخ الامام .

ثم نضيف إليهم أحد أقرانه وهو الشيخ صلاح الدين الصفدي لما كان بينهما من خصوصية فقد ذكر أنه صحبه منذ الصغر، وبه رغب في الأدب، وأخذ كل منهما عن الآخر، فنكتفي بترجمة هؤلاء عن غيرهم، وإلا ففي شيوخه كثرة لا مجال للاطالة بذكرهم هنا، لأن المقصود الإشارة إلى ما حياه الله به من التلقي على كواكب مشرقة من شيوخ العلم الذين لم يجي لهم بعدهم نظير..

(١) شيخه أبو الحجاج المزي

هو الشيخ جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن علي الحافظ أبو الحجاج المزي، قال التاج: "شيخنا وأستاذنا وقدوتنا حافظ الزمان، حامل راية السنة والجماعة والقائم بأعباء هذه الصناعة، إمام الحفاظ، كلمة لا يجحدونها، وشهادة على أنفسهم يومئذ، واحد عصره بالاجماع

وشيوخ زمانه الذى تصفى لما يقول الأسماع" (١) .

وقال ابن حجر طلب الحديث بنفسه وسمع الكتب الطوال كالسنة والمسند والمعجم الكبير وتاريخ الخطيب والسنن الكبير وغيرها .

أخذ عن محي الدين النووى وغيره، وسمع بالشام، والحرمين، ومصر، وغيرها، وبلغت مشيخته نحو ألف شيخ، وكان فقير الحال، أول ما حصل من الوظائف الناصرية، ثم دار الحديث الأشرفية، قال ابن تيمية لما باشرها المزي لم يلها من حين بنيت أحق بشرط الواقف منه « لقول الواقف فيها : " فان اجتمع من فيه الرواية، ومن فيه الدراية، قدم من فيه الرواية" (٢) ، وقد سمع منه ابن تيمية والذهبي والبرزالي، والتقى السبكي، وخلق لا يحصون، وقال الذهبي : كان خاتمة الحفاظ وناقد الأساتيد والألفاظ، وهو صاحب معضلاتنا وموضح مشكلاتنا، حفظ القرآن فى صباه وتفقه للشافعى، وعنى باللغة فبرع فيها جدا ولو كان لسى رأى لازمه أضعاف ما جالسته فإبنى أخذت عنه هذا الشأن، بحسبى لا بحسبه، وكان لا يكاد يعرف قدره إلا من أكثر مجالسته، وكان خيرا ذا ديانة وتصون وسلامة باطن وعدم دهاء . . . »

وذكر التاج أنه لم ترعيناه أحفظ من أبى الحجاج المزي، وأبى عبد الله الذهبي، والشيخ الامام والده، رحمهم الله : قال : " وغالب طنبى أن المزي يفوقهما فى أسماء رجال الكتب الستة، والذهبي يفوقهما فى أسماء رجال من بعد الستة والتواريخ والوفيات، والوالد يفوقهما فى العلل، والمتون والجرح

(١) قال التاج : وكان الوالد كثير التعظيم له جدا، حتى إنه شجر مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فنزلنى فيه رغم صغر سنى فعجبت من ذلك وسألته فقال لي قال إنك كنت فقيها عند المزي - راجع الطبقات

٣٩٩/١٠ .

(٢) انظر الدرر الكامنة ٤/ ٥٧ وما بعد ها شذرات الذهب ٦/ ١٣٦، الطبقات ١٠/ ٢٢٠ .

والتعديل ، مع مشاركة كل منهم لصاحبيه ، فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة ،
ثم قال : وبالجملـة كان شيخنا المزي أعجوبة زمانه ، وكان قد انتهت إليه
رئاسة المحدثين في الدنيا ، صنف " تهذيب الكمال " المجمع على أنه لم
يصنف مثله ، وكتاب الأطراف وغيرهما من نفائس المصنفات ، وقد قرأت عليه وسمعت
عليه الكثير ، وغالب المحدثين من دمشق وغيرها قد تتلمذوا له ، واستفادوا منه ،
توفى رحمه الله سنة ٧٤٢ هـ بدار الحديث الأشرفية .

(٢) شيخه الذهبي

قال التاج : " شيخنا وأستاذنا الامام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله
التركمانى الذهبى ، محدث العصر (١) ، إمام الوجود حفظاً ، وذهب العصر معنى
ولفظاً ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال فى كل سبيل ، كأنما جمعت الأمة
فى صعيد واحد فنظرها ، ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها . كان مخط
الرجال ، ومنتهى الرغبات ، وهو الذى خرجنا فى هذه الصناعة ، وأدخلنا فى
عداد الجماعة ، جزاه الله عنا أفضل الجزاء وجعل حظه من غرفات الجنات موفورة
الأجزاء . . . "

كان مولده سنة ٦٧٣ هـ طلب الحديث وله ثمانى عشرة سنة ، وأجاز
له جماعة ، وسمع بمصر والشام من جهابذة الشيخ ، فجمع الكثير ، ونفع الجـم
الغفير ، وما زال يخدم هذا الفن إلى أن رسخت فيه قدمه ، وتعب الليل والنهار
وماتعب لسانه ولا قلمه ، وضربت باسمه الأمثال وسار اسمه مسير الشمس ، وأقام
بدمشق يرحل إليه من سائر البلاد ، وتناديه السوءالات من كل ناد . . . (٢)

(١) قال التاج : اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ بينهم عموم وخصوص ، المزي
والبرزالي ، والذهبي ، والشيخ الامام الوالد لا خاسر لهؤلاء فى عصرهم . . .
انظر الطبقات ٩ / ١٠٠ وما بعدها .

(٢) طبقات ٩ / ١٠٠ وما بعدها .

وقال الصفدى فى ترجمته: إنه حافظ لا يجارى، ولا فظ لا يبارى، أتقن الحديث ورجاله ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس وأزال الابهام فى تواريخهم واللباس، اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيرا من تصانيفه.

ولم أجد عنده جمود المحدثين ولا كودة النقلة، بل هو فقيه النفس، له دُرّة بأقوال الناس، ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات، وأعجبنى منه ما يعانىة فى تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثا يورده، حتى يبين ما فيه من ضعف متن، أو ظلام إسناد، أو طعن فى رواته، وهذا لم أره لغيره...
ثم قال وأنشدنى لنفسه قوله :

العلم قال الله قال رسوله .. إن صح والإجماع فاجهد فيه
وحذار من نصب الخلاف جهالة .. بين الرسول وبين رأى فقيهه (١)
وله رحمه الله التصانيف الشهيرة السائرة: منها التاريخ الكبير والأوسط "العبر" والصغير (دول الاسلام) وسير أعلام النبلاء، ومختصر تهذيب الكمال للمزى، والميزان فى الضعفاء، ومختصر سنن البيهقى، وطبقات الحفاظ، وطبقات القراء، والمعجم الكبير، والصغير، والمختصر لمحدثى العصر، وغيرها كثير.

توفى رحمه الله ليلة الاثنين ثالث ذى القعدة سنة ٧٤٨ هـ: قال التاج: ورآه الوالد رحمه الله قبل المغرب وهو فى السياق وقال له كيف تجدك؟ فقال فى السياق، ثم سأله أَدْخَلَ وقت المغرب؟ فقال له الوالد ألم تصل العصر؟ فقال بلى ولكن لم أصل المغرب إلى الآن، وسأله عن الجمع بين المغرب والعشاء تقديمًا فأفتاه بذلك ففعله. ومات بعد العشاء قبل نصف الليل وحضرت الصلاة عليه ودفنه، ثم قال وقد كنت لما توفى شيخنا رثيته بقصيدة مطلعها :

(١) راجع الوافى بالوفيات ١٦٣/٢، وانظر كذلك شذرات الذهب ٦/١٥٣،

البدر الطالع ١١١/٢.

من للحديث وللسارين في الطلب . . من بعد موت الامام الحافظ الذهبي
 من للرواية للأخبار ينشرها . . بين البرية من عجم ومن عرب
 من للدراية والأثار يحفظها . . بالنقد من وضع أهل الغي والكذب
 من للصناعة يدري حل معضلها . . حتى يريك جلاء الشك والريب
 إلى أن يقول :

بالله يانفس كوني لى مساعدة . . وحاذرى جزع الأوصاب والرعب
 فهذه الدار دار لا ذمام لها . . ليست بنبع إذا عدت ولا غـ^(١)رب
 وليس تبقى على حال وليس لها . . عهد يمك بالآوتاد والطنـب
 بينا يرى المرء في بحر المعزة ذا . . خوض ترامت عليه ذلة النـوب
 هذى المنية لا تنفك آخذة . . ما بين محتقر فينا وذى نسب
 هي السهام نصينا نحوها غرضا . . تصمى وتسلم كالعسالة السلب
 وهو الحمام فلا تعجب عليه ولا . . تعجب لديه فعا في الموت من عجب
 وإن تغب ذات شمس الدين لا عجب . . فأى شمس رأيناها ولم تغـب
 هو الإمام الذى روت روايته . . وطبق الأرض من طلابه النجب
 ثبت صدوق، خبير حافظ يقط . . فى النقل أصدق انباء من الكتب
 الله اكبر ما أحرى وأحفظه . . من زاهد ورع فى الله مرتقب
 إلى آخر القصيدة وهي طويلة ولم يذكر فى الطبقات إلا بعضها (٢)

(١) عجز هذا البيت من شعر أبى تمام فى فتح عمورية حيث قال مكذبا
 للمنجمين الذين حكموا بأن المعتصم لن يفتحها :

أين الرواية أم أين النجوم وما . . صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
 تخروفا وأحاديثا ملفقة . . ليست بنبع إذا عدت ولا غـرب
 انظر ديوانه ٤٢/١ : والنبع والغرب ضربان من الشجر النبع من جـده
 والغرب من رديئه ، يقول هذه الأحاديث ليست بقوة ولا ضعيفة بل
 هى لاشئ كالعدم

(٢) انظر ذلك ١٠٩/٩

(٣) شيخه أبو حبيان

هو : أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي أبو حبيان
الأندلسي كان مولده سنة ٦٥٤ هـ .

قال ابن حجر : سمع الكثير ببلاد الأندلس وأفريقية ثم قدم مصر سنة
٦٨٠ هـ فسمع الكثير وانتقى على الأسياف وخرج وشغل الناس بالنحو والقراءات
ولازم الشيخ ابن النحاس فسمع عليه كثيرا من كتب الأدب (١) .

قال الصفدي : " كان له إقبال على ذكاء الطلبة يعظمهم وينبؤهم
بقدرهم ، وكان كثير النظم من الأشعار والموشحات ، وكان ثبوتا فيما ينقله عارفا
باللغة ، وأما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما ، خدم هذا الفن أكثر
عمره ، حتى صار لا يذكر أحد في الأقطار فيهما غيره ، وله اليد الطولى في
التفسير والحديث ، وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم ، وله التصانيف التي سارت في
الآفاق واشتهرت في حياته ، وأقرأ الناس قديما وحديثا ، وصارت تلامذته أئمة
وأسيافا في حياته . وهو الذي جسر الناس على قراءة كتب ابن مالك ورغبهم
فيها ، وشرح لهم غامضها ، وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب هذه نحو الفقهاء ،
والزم أحدا أن لا يقرى أحدا إلا في كتاب سيبويه أوفى التسهيل لابن مالك أو
في مصنفاته " (٢) .

وقال التاج : " كان عذبا منهلا تضرب إليه الأبل أباطها ، سمع عليه
الجم الغفير ، وأخذ عنه غالب مشيختنا وأقراننا منهم الشيخ الإمام الوالد
وناهيك بها منقبة لأبي حبيان ، وكان يعظمه كثيرا ، قال : ولما توجهنا من
دمشق إلى القاهرة سنة ٧٤٢ هـ وأمروا السلطان بالعود إلى الشام لانقضاء

(١) انظر الدرر الكامنة ٣٠٢/٤ .

(٢) راجع وفات الوفيات ٢٦٧/٥ .

ما كنا ، توجهنا لأجله استتمه الوالد أياما لأجلى فمكث حتى أكملت على أبى
حيان ما كنت أقروءه عليه ، وقال لى يابنى هو غنيمة ولعلك لاتجده من سفرة أخرى ،
وكان كذلك ، وكان الشيخ أبو حيان إماما مبجلا اتفق أهل العصر على تقديمه
وإمامته ، ونشأت أولادهم على حفظ مختصراته ، وأباؤهم على النظر فى مبسوطاته ،
وضربت باسمه الأمثال ، مع صدق اللهجة وكثرة الاتقان والتحري ، وصف التمانيف
السائرة ، منها البحر المحيط فى التفسير ، وشرح التسهيل ، والارتشاف ، وتجريد
أحكام سيبويه ، وغير ذلك (١) .

وذكر ابن حجر أنه كان بخيلا يفتخر بالبخل كما يفتخر الناس بالكرم
ويقول أوصيك احفظ دراهمك ودع يقال بخيل ، ولا تحتاج إلى الأراذل (٢)
وقال عنه الذهبى فى المعجم المختصر : " أبو حيان ذو فنون حجة
العرب وعالم الديار المصرية ، له عمل جيد فى هذا الشأن وكثرة طلب "
وذكر الاسنوى أنه كان إمام زمانه فى علم النحو واللغة وكان شاعرا مجيدا
ومن شعره قوله :

إن الدراهم والنساء كلاهما .. لاتأمن عليهما إنسانا

ينزعن ذا اللب المتين عن التقى .. فىرى إساءة فعله إحسانا (٣)

وقال التاج أنشدنا لنفسه بقرائى عليه قوله :

يظن الغمر أن الكتب تجدى .. أذا ذهن لإدراك العلوم

وما يدرى الجهول بأن فيها .. غوامض حيرت عقل الفهيم

إذا رمت العلوم بغير شيخ .. ضللت عن الصراط المستقيم

وتلتبس الأمور عليك حتى .. تصير أضل من توما الحكيم (٤)

توفى رحمه الله سنة ٧٤٥ هـ .

(١) راجع الطبقات ٢٧٦/٩ (٢) الدور ٣٠٣/٤ .

(٣) انظر الدور الكامنه ٣٠٢/٤ ، ٣٠٢/٤ .

(٤) راجع الطبقات ٢٧٧/٩ .

(٤) والده الشيخ الامام السبكي

هو أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام الشيخ الامام الفقيه المحدث الحافظ، المفسر المقرئ، الأصولي، اللغوي، الأديب، الحكيم، النظار، شيخ الاسلام تقي الدين السبكي .

قال ابن حجر " ولد بسبك العبيد في صفر سنة ٦٨٣ هـ وتفق على والده ، ودخل القاهرة واشتغل على ابن الرفعة وأخذ الأصولين عن الباجي ، والنحو عن أبي حبان ، والتفسير عن العلم العراقي ، والقراءات عن التقي السائغ والحديث عن الدمياطي ، ثم طلبه بنفسه ورحل فيه إلى الشام والحجاز فأخذ عن خلق يجمعهم معجبه الذي خرج له أبو الحسن ابن أبيك الدمياطي ، ولسي بالقاهرة تدريس المنصورية ، والكهارية ، وجامع الحاكم وغيرها وكان أكابر الدولة الناصرية يعظمونه ويقضون بشفاعته الأشغال . . . (١) . ولما توفي قاضي دمشق الجلال القزويني طلبه السلطان الناصر في جماعة ليختار منهم من يقرره مكانه فوقع الاختيار عليه ، فامتنع ، فراجع الناصر مرارا وألح عليه حتى قبل : قال التاج : " طلبه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وأراد على ولاية قضاء الشام بعد وفاة القزويني فأبى فمازال السلطان إلى أن ألزمه بذلك بعد ممانعة طويلة في مجلس متماد ، يطول شرحه ، فقبل الولاية . . . يالها من غلطة أف لها ، وورطة ليته صم ولا فعلها " (٢) وكان ذلك سنة ٧٣٩ هـ وباشر القضاء في الشام بهمة وصرامة وعفة وديانة وكان ينشد لنفسه :

إن الولاية ليس فيها راحة . . . إلا ثلاث يبتغيها العاقل
حكم بحق أو إزالة باطل . . . أو نفع محتاج سواها باطل (٣)
ثم أضيفت إليه الخطابة بالجامع الأموي . . . فقال في ذلك الحافظ الذهبي :

(١) انظر الدرر الكامنة ٦٣/٣ .

(٢) راجع الطبقات ١٠/١٦٨ .

(٣) طبقات ١٠/١٧٩ .

ليهن المنبر الأموى لما .. علاه الحاكم البحر التقى
 شيوخ العصر أحفظهم جميعا .. وأخطبهم وأقضاهم على (١)
 وولى التدريس بدار الحديث الأشرفية بعد وفاة المزي (٢) وتدريس
 الشامية بعد موت ابن النقيب (٣) .

قال ابن حجر : " وكان متقشفا فى أموره ، متقللا فى حاجاته ، لا يستكثر
 على أحد شيئا ، ولما مات وجدوا عليه اثنين وثلاثين ألف درهم ديناً ، فالتزم ولداه
 تاج الدين وبهاء الدين بوفائها " (٤) .

وذكره الذهبى فى المعجم المختص فقال عنه : " القاضى الامام ،
 العلامة الفقيه المحدث الحافظ ، فخر العلماء ، سمع من الديماطى وطبقته وكان

-
- (١) راجع الطبقات ١٠ / ١٦٩ .
 (٢) قال الساج : " فالذى نراه أنه ما دخلها أعلم منه ولا أحفظ من المزي
 ولا أورع من النووى وابن الصلاح .
 (٣) قال تاج الدين " فما حل مفرقها أعلم منه ، كلمة لا استثناء فيها ، كذا يكون
 من يتولى المناصب ويمثل هذا تنال المراتب .. " انظر الطبقات ١٠ / ١٧٠
 (٤) انظر الدرر الكامنة ٣ / ٦٣ : ومما يدل على قلة حاله ، وزهده فى الدنيا
 قوله فى الفتاوى ١ / ١٢٥ :

من الناس من قد دبروا فتحصلوا .. على نعمة فى نسلهم هى باقية
 ومالى تدبير لِنفسى لا ولا .. لنسلى لكن نعمة الله كافية
 كما عالى دهرى كذاك يعول من .. أخلفه فى عيشة هى راضية
 والدهر هو الله كما ورد فى حديث مسلم ٧ / ٤٥ " لا تسبوا الدهر فإن
 الله هو الدهر " ، قال رحمه الله : نظمته فى سنة ٧٥٢ هـ بسبب
 أنى فكرت فى حالى وحال أولادى من بعدى ولي فى القضاء أربع عشرة
 سنة متمكنا من أن أحصل لهم ما يبقى لهم من بعد موتى ، وقد أقمت قبل
 ذلك بمصر نحو من سبع عشرة سنة ، متمكنا من أن أحصل لهم رواتب
 كبيرة ، ولم أحصل لهم شيئا من ذلك ، ونفسى تطلب الخير لأولادى فى
 حياتى وبعد مماتى ، فتوكلت على الله وأحلتهم على فضله كما تفضل على .. "

صادقا متثبتا، خيرا ديننا متواضعا حسن السمعت من أوعية العلم يدري الفقه ويقرره ،
وعلم الحديث ويحرره، والأصول ويقرئها، والعربية ويحققها ، صنف التصانيف
المتقنة ، وقد بقى في زمانه الملحوظ إليه بالتحقيق ، والفضل : سمعت منه وسمع
مني ، وحكم بالشام، وحمدت أحكامه .

فأله يوفيه ويسدده . . وذكر في حقه أبياتا قالها في مدحه، ذكرها
التاج في ترجمة الذهبي فقال (أنشدنا لنفسه وأرسلها معي إلى الوالد رحمه
الله وهي فيما أراه آخر شعر قاله، لأن ذلك كان في مرض موته قبل وفاته بيومين
أو ثلاثة :

تقى الدين ياقاضى الممالك . . ومن نحن العبيد وأنت مالك
بلغت المجد في دين ودنيا . . ونلت من العلوم مدى كمالك
ففى الأحكام أقضانا على . . وفي الخدام مع أنس بن مالك
وكابن معين فى حفظ ونقد . . وفى الفتيا كسفيان ومالك
وفخر الدين فى جدل وبحث . . وفى النحو المبرد وابن مالك
وتسكن عند رضوان قريبا . . كما زحزحت عن نيران مالك
تشفع فى أناس فى فرا . . لتكسوهم ولو من رأس مالك
قال التاج: وذكر بعد هذا أبياتا على هذا النمط تتعلق بمدحى، لم
أذكرها و ختمها بقوله :

وللذهبي إردال الموالى . . على المولى كحلمك واحتمالك (١)

وقد كتب له التاج رحمه الله ترجمة ضافية، فى الطبقات بسطها كل
البسط فأطال وأطاب، فى حوالى مائتى صفحة، ذكر فيها دررا مشرقة من سجاياه
ومناقبه وآثاره قل أن تجدها لنظيره فى كتب التراجم ومنها قوله :

" شيخ المسلمين فى زمانه والداعى إلى الله فى سره وإعلانه والمناضل

عن الدين الحنفي بقلمه ولسانه ، أستاذ الأستاذين ، وأوحد المجتهدين وخصم المناظرين ، جامع أشتات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم ، ثم أنشد :

وكان من العلوم بحيث يقضى . . له من كل علم بالجميع

وأضاف يقول : إنه تفرد في الأقاليم وصار المشار إليه بالعلوم كلها الملحوظ بعين التحقيق ، من سنة ست عشرة التي مات فيها الشيخ صدر الدين ابن الوكيل قرينه ، واستمر إلى وفاة الشيخين تقى الدين ابن تيمية ، وكمال الدين ابن الزمكاني ، فلما توفيا تفرد في العصر بأجمعه ، قال : ولا أعلم غيره مكث سبعة وعشرين سنة لا يختلف أشان في أنه أعلم أهل الأرض على الإطلاق ، في كل علم ، فإنه مكث من سنة تسع وعشرين إلى أن مات سنة ست وخمسين وفيها مات عالم الأرض با لاجماع . . " (١) .

ثم أورد غرراً بديعة من أحواله واختياراته العلمية وما يربو على المائة من مصنفاته ، وختم تلك الترجمة الطويلة بقوله : " ولا يظن الظان أنا أطلناها اعتقاداً في الشيخ الإمام ، أنه أعظم من عظماء أهل الطبقات الذين لم نطل في تراجمهم ، كما أطلنا في ترجمته ، أو أنا فعلنا ذلك تعصبا للوالد ، وإنما السبب أنا على أحوال الوالد أكثر منا اطلاعا على أحوال من سبق ، ممن لم نخالطه ولم نعاشره ، ونحن على يقين بأن فيهم من هو أعلا مقاما من الشيخ الامام . . " .

(١) راجع الطبقات ١٠/١٦٧ وما بعدها ، وقد توفي ليلة الاثنين المسفرة عن ثالث جمادى الآخرة من سنة ٧٥٦ بظاهر القاهرة ودفن بباب النصر تغمد الله برحمته : قال التاج : والأطباء متفقون على أنه مسموم وحكى لي الأخ الشيخ الامام بها الدين أنه قبل وفاته بيومين أسر إلى بعض أصحابه " انى مسموم وأعرف من سمنى ولا أذكره " وأنه أوصاه أن لا يعرف أولاده بشئ ، لئلا يشوش عليهم فلم يذكر ذلك ، إلا بعد وفاته " ، انظر ذلك ١٠/٣١٦ ، قال ابن حجر وكان قد سعى ولده بها الدين أن يدفن عند الامام الشافعى فامتنع الأمير شيخون من من إجابته فدفنه بسعيد السعداء ، انظر الدرر ٣/٦٤ .

(٥) الصلاح الصفدى

هو خليل بن أيبك بن عبد الله الشيخ أبو الصفاء، صلاح الدين الصفدى، قال التاج : الإمام الأديب، الناظم النائر، أديب العصر، ولع بالأدب فطلبه بنفسه وبرع فيه، وقال الشعر الحسن ثم أكثر جدا من النظم والنثر، والترسل، وأخذ عن ابن نباتة وابن سيد الناس وأبى حيان، ونحوهم وسمع من المزي وجماعة وطاف مع الطلبة، وكتب الطباقي ثم أخذ في التأليف، فجمع تاريخه الكبير الذى سماه (الوافى بالوفيات) فى نحو ثلاثين مجلدة على حروف المعجم، وله شرح لامية العجم، وألحان السواجع، وغير ذلك (١).

قال الذهبى فى حقه : " الأديب البارع الكاتب شارك فى الفنون، وتقدم فى الإنشاء، وجمع وصنف، سمع منى وسمعت منه، وله تواليف وكتب وبلاغة. "

قال التاج : " ولد سنة ٦٩٦ هـ وصنف الكثير فى التاريخ والأدب . .

قال لى : إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفا، وكانت بينى وبينه صداقة منذ كنت صغيرا فإنه كان يتردد إلى والدى فصحبته، ولم يزل مصاحبا لى إلى أن قضى نحبه، وكانت له همة عالية فى التحصيل، فما صنف كتابا إلا وسألنى فيه عما يحتاج إليه من فقه، وحديث، وأصول، ونحو، لاسيما كتابه (أعيان العصر) فأنا أشرت عليه بعمله، ثم استعان بى فى أكثره، ولما أخرجت مختصرى فى الأصلين المسمى (جمع الجوامع) كتبه بخطه وصار يحضر الحلقة وهو يقرأ علي ويلذ له التقرير، وسمعه كله على وربما شارك فى فهم بعضه رحمه الله .

قال : وكان يكتبنى وأكاتبه منذ الصغرو به رغبت فى الأدب

كتبت إليه مرة من القاهرة فى سنة ٧٦٣ هـ أقول :

لاتبكين ما تسننه . . ودع الرسوم المستبحنه

(١) انظر ترجمة فى الدرر الكامنه ٨٧/٢، البداية والنهاية ١٤/٣٠٣،
البدر الطالع ١/٢٤٣.

بكر العواذل فى الفـرا .. م يلمنى وألومهنـه
ويقلن شيب قد عـلا .. ك وقد كبرت فقلت إنه
إلى قوله يخاطبه :

واذكر صفاء أبى الصفاء .. والخطب معتكر الدجنة
السيد اليقظ الأغـر .. أخى الوفاء بدون منة
متدرع ثوب التقوى .. حصنا وتقوى الله جنة
متفنن بحر إذا .. جاريته لم تدر فنـه
يا أيها الحبر الذى .. جعل الإله الخير ضمنه
دم وابق مابقى الزما .. ن فإن وهى زلزلت وهنه
ولقدرك العالى العلو .. فما النجوم علا يطلنـه

إلى آخر الرسالة نظماً ونثراً فى أدب سلس أسلس قياداً من الغمام
بأيدي الرياح .. فأجابه الصفدى يقول :

وافى قريضك لى كأنه .. صبح وقد شق الدجنة
فاللحن منه مطرب .. مع أنه ما فيه لحنـة (١)

إلى آخر الجواب على صفة صنيع المصنف نظماً ونثراً .. وكانت وفاة الشيخ
الصفدى فى شوال سنة ٧٦٤ هـ بدمشق .. ومن شعره رحمه الله قوله :

الجد فى الجد والحرمان بالكسل .. فانصب تصب عن قريب غاية الأمل
واصبر على كل ما يأتى الزمان به .. صبر الحسام بكف الدارع البطل
وجانب الحرص والأطماع تحظ بما .. ترجو من العز والتأييد فى عجل
ولا تكونن على ما فات ذا حزن .. ولا تظل بما أوتيت ذا جـذل
واستشعر الحلم فى كل الأمور ولا .. تسرع ببادرة يوماً إلى رجل
وإن بليت بخم لا خلاق له .. فكن كأنك لم تسمع ولم يقل

(١) راجع الطبقات ٩/ ٥-٣٢، شذرات الذهب ٦/ ٢٠٠، فهرس الفهارس

ولا تمارس فيها فى محاوره .. ولا حلما لكي تنجو من الزلزل
 ولا يغرنك من يبدى بشاشته .. إليك خدعا فإن السم فى العسل
 وإن أردت نجاحا أو بلوغ منى .. فاكم أمورك عن حاف ومنتعل
 لا تأمن الدهر أن يعلى العدو ولا .. تستأمن الدهر أن يلقىك فى السفلى
 أحق شيء يرد ما تخالفه .. شهادة العقل فاحكم صنعة الجدلى
 وقيمة المرء ما قد كان يحسنه .. فاطلب لنفسك ماتعلو به وسلى
 أطلب تنل لذة الإدراك ملتصا .. أوراثة اليأس لا تركز إلى الوكل
 فكل داء دواءه ممكن أبدا .. إلا إذا امتزج الاقتار بالكسل

المبحث السادس

فى تلاميذه

مما لا شك فيه أنه قد تتلمذ على ابن السبكي عدد وافر من العلماء ،
الذين كان لهم تأثير كبير فى مجتمعاتهم واسهامات جليلة فى العلوم الإسلامية
وذلك نظرا لما اشتهر به التاج السبكي ، من الصيت الذائع والعلم الغزير ،
والتدريس المتواصل فى معظم مدارس الشام آنذاك .

قال رحمه الله : " وأما دمشق فما فيها مدرسة مرموقة بعين التعظيم إلا وقد
وليت تدريسها بحمد الله إلا اليسير من المدارس " . (١)

ولكن كتب التاريخ لا يكثر فيها ذكر هؤلاء التلاميذ بالنسبة للتاج
السبكي ، كما هو الحال بالنسبة لغيره .

ولعل مرد ذلك إلى أن انشغاله بالقضاء ، والوظائف الرسمية كان يحول
بينه وبين مقابلة الطلاب فى بيته فأقتصر لقاءه بهم فى ساحات المدارس
الرسمية والجوامع العلمية فى حلقات مفتوحة تضم العدد الكبير من المتعلمين ،
والمستمعين فلم ير المؤرخون عددا هؤلاء الجموع المتكاثرة من تلاميذه ، ولكننا
بمراجعة مصادر التراجم العديدة وجدنا له كثيرا ممن أخذ عنه ولازمه وأفاد منه ،
ومن أبرز هؤلاء :-

(١) الامام ابن الجزرى :

فقد أخذ عنه فى الفقه والحديث والقراءات وغير ذلك وذكر تلمذته
للتاج السبكي شيخ الاسلام فى غاية الوصول (٢) ، والشوكانى فى البدر الطالع

(١) انظر الاشباه والنظائر ورقه ٢١٧ .

(٢) انظر ذلك ص ٣٥ .

ثم ترجمه فقال " هو محمد بن محمد بن علي بن يوسف العمري الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن الجزري ، شمس الدين أبو الخير ولد في رمضان سنة ٧٥١ هـ ، بدمشق فنشأ بها وأخذ القراءات عن جماعة ثم رحل إلى القاهرة فسمع من جماعة وجهد في طلب الحديث بنفسه ، وكتب الطباق وتفقه على الاسنوي واشتد شغفه بالقراءات حتى جمع العشر ، ثم الثلاث عشرة وتصدى للقراء بالجامع الأموي ، وله تصانيف كثيرة نافعة منها النشر في القراءات العشر ، والتمهيد في التجويد ، وطبقات القراء ، وغيرها كثير ، وقد تفرد بعلم القراءات في جميع الدنيا ، ونشره في كثير من البلاد ، وكان أعظم فنونه وأجل ما عنده ، توفي رحمه الله سنة ٨٣٣ هـ ^(١) قال ابن حجر : وقد انتهت إليه رئاسة علم القراءات في الممالك الإسلامية .

(٢) الشيرازي :

قال المصنف عند ذكره لقصيدته النونية التي عملها في العقائد قال : " وقد ولع كثير من الناس بحفظها لاسيما الحنفية وشرحها من أصحابي الشيخ الامام العلامة نور الدين محمد بن أبي الطيب الشيرازي الشافعي حين ورد علينا دمشق في سنة ٧٥٧ هـ وأقام يلزم حلقتي نحو عام ونصف عام : قال ولم أرفيعن جاء من العجم في هذا الزمان أفضل منه ولا أدين " ^(٢)

(٣) الحموي :

شهاب الدين أحمد بن عمر بن أبي الرضى الحموي نزيل حلب .
قال ابن حجر : تفقه على التاج السبكي وغيره ومهر وتقدم وكان فاضلا

(١) انظر ترجمة في البدر الطالع ٢/٢٥٧ ، معجم المؤلفين ١١/٢٩١ ،
شذرات الذهب ٧/٢٠٤ ، الدارس ١/٨ ، وقد ذكر ابن الجزري
قراءته على ابن السبكي في كتابه النشر ١/٤٥ .

(٢) انظر الطبقات ٣/٣٧٩ .

عالما كثير الاستحضار عارفا بالقراءات له نظم حسن ، وكانت دروسه حافلة ،
والثنا عليه وافر ، وكان من رجال العالم بجدته وهمة وكان يقوم بأمر الشرع
ويشتد في إنكار المنكرات ، توفي رحمه الله سنة ٧٩١ هـ . (١)

(٤) اللمعى :

شمس الدين محمد بن موسى بن محمد بن سند اللمعى دمشقى
المحدث ولد سنة ٧٢٩ هـ .

قال ابن حجر : كان شديد اللزوم للتاج السبكى ، وقارئا لتصانيفه
فى دروسه ، وناب عنه فى مشيخة دار الحديث الأشرفية وغيرها (٢)
وعنى بالحديث ، فسمع من جماعة ، وصنف وخرج وكتب العالي والنازل
وكان حسن القراءة مفرط الذكاء ، وهو القائل :

الحافظ الفردان أحببت رويته . . فانظرإلى تجدنى ذاك منفردا

كفى لهذا دليل أننى رجل . . لولاي أضحي الورى لم يعرفوا سندا

ثم ذكر أنه اختلط قبل موته بسنة بسبب مرض طال به ، وكان عالما له يد
فى النحو والحديث كيسا ، متواضعا ، توفي رحمه الله سنة ٧٩٢ هـ (٣)

(٥) السلمى :

الحافظ أبو المعالي نصر الدين محمد بن على بن عبد الواحد
السلمى المولود سنة ٧٤٢ هـ

قال ابن حجر : قرأ الأصول على تاج الدين السبكى وطارحه فى

-
- (١) انظر الدرر الكامنة ٢٢٧/١ .
 - (٢) وذكر السيوطى أنه أخذ عن التاج السبكى ولازمه وولاه عدة وظائف ،
انظر طبقات الحفاظ ص ٥٣٧ .
 - (٣) انظر تاريخ ابن حجر ٥١/٣ ، حسن المحاضرة ٣٦/١ ، شذرات
الذهب ٣٢٦/٦ .

أبيات، فأجابه ومدحه، وكان بليغا مفوها، جيد الضبط والشعر، سريع الحفظ
جدا .

وقال السيوطي إنه أخذ عن التاج السبكي وغيره، واعتنى بالحديث (١)
فسمع من جماعة وكان فاضلا عالما مشاركا في العلوم - توفي رحمه الله سنة
٧٨٩ هـ .

وذكر السخاوي في ترجمة عمران بن إدريس الكنانى الدمشقى المقرئ
المولود سنة ٧٣٤ هـ والمتوفى سنة ٨٠٣ هـ أنه لازم التاج السبكي فى الفقه
وغيره وكان من بقايا الشيوخ . (٢) .

هو " لا " بعض تلامذته رحمه الله وغيرهم كثير . .

(١) انظر تاريخ ابن حجر ٤ / ٨٥ ، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٤٠ .

(٢) انظر الضوء اللامع ٦ / ٦٣ ، وراجع تاريخ ابن حجر ٤ / ٣٠٦ .

المبحث السابع

ثناء العلماء عليه

لقد اعترف العلماء للتاج السبكي رحمه الله بأنه كان قمة في العلم والفضل، والخلق القويم ، وأوسعوه مدحا وثناءً ، وترددت ألسنتهم كثيرا بذكر فضائله ورفيع قدره .

فقال عنه الشيخ إبراهيم الجاربردى الحنفى : " شيخ الاسلام والمسلمين إمام المحدثين خاتمة المجتهدين حجة الله على العالمين ، أفضل أهل الزمان باتفاق أهل العلم والعرفان " (١) .

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى فى حقه : " شيخ الاسلام وأحد المجتهدين فى عصره إمام العلوم على الأبد ، والسيد الحافظ الذى داره لا دارمية بين العليا والسند ، فهو بين العلماء إمام ملتهم ، ومجلى حلتهم والمنشد عند طلوع أهلتهم :

أخذنا بأفاق السماء عليكمو . . لنا قمراها والنجوم الطوالع (٢)

وقال عنه صاحب درة الأسلاك فى تاريخ الأفلاك : " إنه إمام كبير وحاكم خبير ، وماجد ، فخر علومه فى الآفاق مستطير ، أغصان مكارمه باسقة ، وأنهار فضائله دافقة ، تبجحت بمرافقة أرباب السياسة ، واقتخرت بمقارنة تاجه رؤوس الرئاسة ، وانشرحت بأحكامه صدور المجالس ، وتأرجت بأنفاسه أرجاء المنابر والمدارس (٣) .

(١) ذكره عنه فى الطبقات ٦١ / ١٠ .

(٢) انظر فى الطبقات ٣٥٥ / ٩ .

(٣) كذا ذكره فى مقدمة معيد النعم ص ط .

ونقل عبد الحي الكتابي عن الشهاب أحمد بن قاسم قوله عنه :
 " الامام المجمع على جلالته قدره وتمايم بدره " .

بل قيل : " لو قدر امام خامس مع الأئمة الأربعة لكان ابن السبكي (١)

(١) انظر فهرس الفهارس والأشبات ١٠٣٧/٢ ، وقد كان ابن القاسم العبادي مغرما بالرجل جدا ولذلك تجده في الآيات البينات ينتصر لأقواله غاية الانتصار ، ويورد من الحجج والبراهين ما يؤيد كل لفظة من ألفاظ جمع الجوامع ، ثم يرد على منتقدي هذا الكتاب بأسلوب قوي قد يصل أحيانا إلى حد التشنيع عليهم - انظر مثالا على هذا الآيات البينات ١٥/٣ .

الفصل الثاني

دراسة تحليلية حول الكتاب

ويتضمن عدة مباحث :

- الأول : مصطلحات المصنف في هذا الكتاب
- الثاني : مصادر الكتاب
- الثالث : أهمية الكتاب
- الرابع : ملاحظات حول الكتاب
- الخامس : أسلوب المؤلف ومنهجه في الكتاب

اولا : أسلوبه

ثانيا : منهجه

المبحث الأول

مصطلحات المصنف في هذا الكتاب

من هذه المصطلحات :

أنه إذا قال : " قال الشيخ الامام كذا " فالمراد به والده تقى الدين السبكي وإذا قال : " شيخنا " فالمراد به أبو الحسن الأشعري وإذا قال (علماؤنا) أو (أصحابنا) فالمراد بهم الشافعية ، وإذا قال (مشايخنا) أو (أئمتنا) فالمراد بهم الأشعرية ، وإذا قال (علماء السنة) فهو يقصد الأشاعرة ، وإذا قال (الحكماء) فالمراد بهم الفلاسفة ، وإذا قال (الفقهاء) فقصد به فقهاء الشافعية ، وإذا قال (الأصوليون) فالمراد بهم المتكلمون ، وإذا قال (شرح المختصر) فالمراد به كتابه (رفع الحاجب) ، وإذا قال (المختصر) فهو يعني كتابه (جمع الجوامع) ، وإن قال (الطبقات) فالمراد كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) وإذا قال (شرح المنهاج) فالمراد كتابه (الإبهاج) فإن أضافه إلى والده : فالمراد به (الإبتهاج) شرح منهاج النووي في الفقه .

المبحث الثانى

مصادر الكتاب

أثبت المصنف فى هذا الكتاب كثيرا من أقوال العلماء الواردة فى مصنفاتهم فنقل عن مصادر كثيرة منها :

المستصفى، والوجيز، والتهافت، والفتاوى، للغزالي، والبرهان والنهاية والمدارك، لإمام الحرمين، وشرح مسلم، والروضة، للنووى، والام واختلاف الحديث للشافعى، وصحيح البخارى، وقواعد ابن عبد السلام، والتقريب والارشاد للباقلانى، والحاوى للماوردى، ومختصر ابن الحاجب والتصريف له، ومقالات الاسلاميين للأشعرى، ورسالة القشيري، وكتاب سيبويه، والتسهيل لابن مالك، والمحصول للرازى، وفتاوى ابن الصلاح، ومقامات الحريري، وكشف القناع، والحلييات، والنوادر الهمدانية، وشرح المنهاج لوالده الشيخ الامام، إضافة إلى كثير من كتبه هو، كشرح المختصر، والابهاج، وجمع الجوامع، والأشباه والنظائر، والطبقات، والسيف المشهور، وغيرها. (١)

فهذه الكتب تعتبر مصادر الكتاب فى مادته كلها .

هذا وقد كتب المصنف كثيرا من هذا الكتاب من حفظه دون أن يستعين بكتاب فذكر فى مبحث الأداة أنه كان من رأس القلم يكتب حيث لا كتاب ولا وقت متسع (٢) .

(١) انظر لهذه النقول صفحات ٤٣، ٥٩، ٧٢، ٨٠، ١٠٧، ١١٤،

١٢٣، ١٢٦، ١٣٠، ١٤٤، ١٨١، ١٨٤، ١٨٦، ١٩١،

٢١٣، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٢٦، ٣٣٠،

٣٦٩، ٤٠٧، ٤٤١، ٤٦٥ من قسم التحقيق .

(٢) انظره ص ٥٧ .

المبحث الثالث

أهمية الكتاب

هذا الكتاب له أهمية عظيمة بين كتب الأصول باعتباره شرحاً لكتاب جمع الجوامع ذي القيمة الرفيعة عند العلماء ومكملاً له، فبهذا الكتاب وضحت مسائل «جمع الجوامع» وحلت عقده ومشكلاته، وصارت عبارته في متناول الجميع .

وبه تدارك المصنف كثيراً من مسائل الأصول التي أغفلها في جمع الجوامع، لأن هذه الإيرادات التي وردت عليه لا تختص به وحده، ولا تتعلق بعبارته فقط ، بل هي أسئلة عامة شاملة ، تطرق فن الأصول جملتها ، والمصنف رحمه الله لم يقتصر في إجابته على ما يخص جمع الجوامع من هذه الأسئلة، بل قد أجاب عنها جميعها، حبا للفائدة، وإتما ما لموضوع الكتاب.

قال رحمه الله في نهاية أجوبة القسم الأول من هذه الإيرادات : قال : " وأنت ترى أكثرها لا اختصاص له بكتابنا جمع الجوامع بل هي أسئلة تتعلق بالفن من حيث هو .

ونحن قد أجبنا عنها جميعها، وكنا قادرين على دفع مالا يتعلق منها بخصوص الكتاب، وذلك حبا للفائدة من حيث هي، وكذلك الأسئلة التي سنذكرها أكثرها من هذا الطراز" (١) .

كما أن هذا الكتاب قد صار عمدة عند علماء الأصول الذين تناولوا جمع الجوامع بالشرح أو التعليق ، فعولوا عليه كثيراً في بيان مقصود المؤلف

(١) انظر ذلك ص ٢١٦ قسم التحقيق .

من عبارته ونقلوا منه المقاطع إلى كتبهم فازدانت بها وترشحت وسلمت من التخييلات (١) .

وأيضاً باعتباره آخر كتب المصنف الأصولية فإن آراءه فيه هي المعول عليها، في المسائل التي كان يتردد فيها نظره في كتبه الأخرى، لأنها جاءت بعد أن تمت شخصيته العلمية وبلغ أشده .

فقوله هنا يعتبر آخر الأمر من أقواله فالعمل عليه فيما خالف فيه غيره ، ومن أكبر ميزاته أيضاً أنك تجد المصنف فيه كثير الاستدراك على كلام الأصوليين، ومن الأمثلة على ذلك قوله إن عدول الأمدى وابن الحاجب في تعريف الفقه عن لفظ " العملية " إلى لفظ " الفرعية " ليس بجيد ، لأنه لا يدخل فيه وجوب اعتقاد مسائل الديانات التي لا تثبت إلا بالسمع : قال فإنها عندي فقه، وليست فرعية " (٢)

وفي تعريف الأداء قال : " وإنما عدلنا عن مثل قول ابن الحاجب وغيره . " الأداء مافعل في وقته المقدر له شرعاً أولاً " لأنك إذا تأملت فيه وجدته مع فساده حداً للعبادة المؤداة لا للاداء " (٣) .

وفي مبحث الاشتقاق ، ذكر أن مذهب القاضي أبي بكر والغزالي وإلكيا الهراسي في منع الاشتقاق، من المجازات ساقط وأن الصواب جوازه منهما جميعاً " (٤) .

(١) ومن هؤلاء العلماء بدر الدين الزركشي في كتابه " تشنيف المسامع والجلال المحلى في شرحه على جمع الجوامع والشربيني في تقريراته عليه واحمد بن قاسم العبادي في الايات البيئات وغيرهم فمن تصفح كتبهم وجد من هذه النقولات الشيء الكثير .

(٢) راجع ص ٢٢٠، ٢٢٣ . تحقيق (٣) انظره ص ٥٥ تحقيق

(٤) انظر ذلك ص ٢٢٩ . تحقيق

وفى مسألة المكروه قال : إن قول القاضى والغزالى بأن السكران الطافح لا يكلف كسائر من لا يفهم ، مما لا نوافقهما عليه ، بل هو مكلف قطعاً إلى غير ذلك من الأمثلة المبنوثة فى ثنايا الكتاب .

كما أن فيه كثيراً من المباحث المحققة تحقيقاً يندر وجوده فى غيره .
كتحقيقه الفرق بين اسم الجنس وعلمه ، وبين الغنم السائمة وسائمة الغنم ،
وكلامه على حرف (لو) ، وعلى الاسم والمسمى ، والسعادة والشقاوة
وغير ذلك من المباحث المجودة . (١)

(١) راجعه ص ٢٣١ ، ٤٤٨ ، ٧٢ وما بعدها ، ص ١٦٤ ، ١٩٣ . تحقيق

المبحث الرابع

ملاحظاتى على الكتاب

من خلال معاشتى لهذا الكتاب تبين لى فيه بعض الملاحظات
وكان من أهمها :

(١) أن المصنف رحمه الله لم يرتبه الترتيب اللائق به، وكان من الأفضل

لو أنه فعل ذلك وساقه على نسق الكتاب الأصل " جمع الجوامع " فإنه سيكون أفيد للقارىء، وأدعى إلى لم ذهنه، وشد انتباهه إلى عبارة النص .

(٢) أنه كان يبتز بعض الأجوبة أحيانا ويحيل القارىء على أحد كتبه

الأخرى (١) وخاصة شرح المختصر، وكان الأجمل بالكتاب أن يكون تاما قائما برأسه، مستوفيا مباحثه بنفسه، لا تعلق له بغيره .

(٣) أنه يورد فيه مباحث كاملة من علم النحو، فيبسطها، ويوشحها كثيرا

ولذلك تجد الناسخ أحيانا يذكر المسألة ثم يحذف ما يتعلق بها من فن النحو ويكتفى بقوله " وقد أطل المصنف فى إعرابها كثيرا " (٢)

(٤) أنه كان يترك شرح بعض القضايا التى يتعرض لها مع احتياجها

للشرح، اعتمادا على أن القارىء الفطن سيعرفها من نظائرها المشروحة وعذره أنه كتب كثيرا من هذا الكتاب من حفظه دون الرجوع إلى الكتب وقد أشار هو إلى ذلك فى مبحث الأداء حيث قال :

(١) راجع ص ٣٣، ١٠٣، ١٠٩، وغيرها كثير من صفحات الاحالات.

(٢) انظر ذلك فى كلامه على (غير) وذكره الوجه فيها ص ١٢٥، وفى

كلامه على أنواع الخبر ص ٤٦١ . بتحقيق

" وأنت إذا تأملت ما شرحنا به الأداء والمؤدي في هذا الكتاب
عرفت به شرح كلامنا في القضاء والمقضى فلا تطيل ونحن من رأس القلم نكتب
حيث لا كتاب ولا وقت متسع" (١) .

(١) انظره ص ٥٧ وانظر كلامه أيضا ص ٢٦٠ . تحقيق

المبحث الخامس - أسلوبه ومنهجه

أولا : أسلوبه

لقد اعتنى التاج السبكي رحمه الله بالتصنيف بعد أن تأهل له، واستوثق من زمام البيان، فازداد بذلك اطلاعا على حقائق العلم ودقائقه^(١)، مما أكسبه دُرية على الأسلوب، ومرانا على إبراز الفكرة، وإيضاح العبارة، وإيجازها بطريقة مثلى ولفظ مشرق وأسلوب بليغ كأنه الصباح يتنفس .

فلا تجده يوضح إيضاحا ينتهى إلى الرككة، ولا يوجز إيجازا يفضى إلى المحق والاستفلاق، وإنما ترى أسلوبه بين ذلك قواما، فهو إن أراد الاطناب أطال وأطاب، وإن جنح إلى الإيجاز فخير الكلام ما قل ودل، ولذلك فكثيرا ما نراه إذا شرح مسألة أحال على فهم القارى ما يشبهها رغبة فى الاختصار، ومن باب حذف الثانى لدلالة الأول عليه . وإذا قرر مسألة تشتمل على مذاهب طوى بعضها فلم يذكره اعتمادا على السياق، وثقة بأن القارى سيدرك صنيعه .

ثم هو فى تصانيفه لا يعنى غالبا إلا بما لم يسبق إليه^(٢) بحيث لا تجد مصنفا لغيره يغنى عن مصنفه، بل تجد تصانيفه اللطاف مملوءة بأبحاث مخترعة له وأقوال مبتكرة وزيادات يحتفل بها، ويكثر الاحتياج إليها^(٣) .

(١) لأن التصنيف يضطر صاحبه دائما إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتحقيق والمراجعة، والالمام بمختلف كلام الأئمة .

(٢) ولذلك تجده فى كثير من مباحثه يقول : وهذا كلام لا تجده عند غيرى وهذه قاعدة ضرورية نافعة لاتراها فى شىء من كتب الأصول، وهذه فائدة لم يذكرها أحد غيرى وهكذا .

انظر على ذلك الطبقات ٢/٢٢٠، ٣/٣٠٠ وراجع مباحث القياس فى جمع الجوامع وفى كتابنا هذا .

(٣) قال فى الابهاج : ١٣٧/٢ : " وأنامن عادتى فى هذا الشرح الاطناب =

وأما ماسبق إليه فلا تجده يتوقف عنده كثيراً إلا أن يضم إليه تنكيها علمياً أو زيادة تحقيق، أو نحو ذلك، مما تطمح إليه النفس ويشرب له الفكر، وماسوى ذلك فإنما يشير إليه إشارات خفيفة، ويرمز له رمز الفارغ منه الذى هو عنده مقرر واضح لا تفيد إعادته إلا السامة والملاة .

ولذلك كان يقول : " وأنا دائماً أستهن من يدعى التحقيق — العلماء إعادة مذكره الماضون، وأرى ذلك انحيازاً عن رتبة العلماء البزل والأذكياء المهرة " (١) .

فيما لا يوجد فى غيره، ولا يتلقى إلا منه كبحث مخترع، أو نقل غريب، أو غير ذلك، والاختصار فى المشهور فى الكتب، إذ لا فائدة فى التطويل فيما سبقنا إليه، وهل ذلك إلا مجرد جمع من كتب متفرقة لا يصدق اسم المصنف على فاعله .

(١) وهكذا كان والده رحمه الله يمتاز بهذه الصفة ومن يشابه أبه فما ظلم وقد أشار هو إلى ذلك فقال : " ومما أعتقد به عظمة الشيخ الامام رحمه الله أن عامة تصانيفه فى مسائل نادرة الوقوع، مولدة الاستخراج، لم يسبق فيها للسابقين كلام، وإن تكلم فى آية أو حديث أو مسألة سبق إلى الكلام فيها اقتصر على ذكر ما عنده، مما استخرجته فكرته السليمة، ووقفت عليه أعماله القويمة " .

غير جامع كلمات السابقين، كحاطب ليل يحب التشبع بما لم يعط، وأن يحمد بما لم يفعل، حظه من التصانيف جمع كلام من مضى فإن ترقى رتبته وتعالى همته لخص ذلك الكلام، وإن ضم إلى التلخيص أدنى بحث أو استدراك، فذاك عند أهل الزمان الحبر المقدم والفارس المبجل ثم قال : " إنما الحبر عندنا من يملأ عليه قلبه ودماغه، وتبرز منه التحقيقات التى تشهد الفطرة السليمة بأنها فى أقصى غايات النظر " .

انظر الطبقات ٩٩ / ١ وما بعدها .

ثم أخذ ينخل هذه المادة المجموعة ويمحصها وينتقى جيداً بقريحة وقادة ونفس عالمة ويتجرد وأناة وعزم لا يلين . . واستمع إليه يصور ملاقاه وكابده في شأن هذا الكتاب، حيث يقول عنه في مقدمة المنع: " وأيم الله لقد استوعب مني كثيراً من أوقات الفراغ، وأخذ من أقلامي وأفكاري ما كاد يستفرغ مدد المداد والدماغ، فلو كان ذا لسان، لا دعى أنه نفيس عمرى ونخبة فكري والذي شمـرت فيه عن ساق الجد، وقد عدت في الديجور أعوانا على سهري . . " (١) .

ولذلك جاء كتاب 'جمع الجوامع' بين كتب الأصول كالغرة في الجبين فبهر العلماء، والتفتت أنظارهم إليه بأعنة الإعجاب والاكبار، وذلك لما امتاز به من حسن السبك والصياغة وجمعه المعاني المتكاثرة في ألفاظ قليلة معبرة، فكان كما قال " في كل ذرة منه ذرة " (٢) .

ثم نظمه في مقدمة وسبعة كتب وخاتمة . (٣)

-
- (١) مقدمة منع الموانع صراً من التحقيق .
 (٢) انظره ص ١٨٥ من الكتاب في مجموع المتن
 (٣) وقد أخلى المصنف رحمه الله هذا الكتاب من قضايا المنطق، التي كثيراً ما يولع الأصوليون بذكرها في مقدمة كتبهم الأصولية، كما فعل الغزالي في المستصفى، وابن الحاجب في مختصره، وغيرهما ممن يرى علم المنطق - متداخلاً مع علم الأصول، والحقيقة أنه لا تداخل بينهما، بل كل منهما فن قائم برأسه، وما اجتزار القضايا المنطقية إلى علم الأصول، إلا عارضة مستكرهة، وقد أحسن المصنف صنعا بإغفاله ذلك .
 وأما ترتيبه لموضوعات الكتاب على مقدمة وسبعة كتب وخاتمة، فهي طريقته الخاصة ولم يذكر لذلك تعليلاً في المقدمة كما فعل الغزالي فـسـى المستصفى، وأبو الحسين البصري في المعتمد، وغيرهما، ولعل إرادة - الاختصار منعتهم من ذلك، كما أنه لم يسر على نهج ابن الحاجب في تناول مسائل الكتاب ولا على نهج البيضاوى من أصحاب المختصرات بل كان كثيراً ما يخالفهما في تقديم موضوع على آخر والاهتمام بمسألة دون أخرى ثم هو قد جعل كتابه في الأصلين فاحتاج إلى طريقة خاصة يسير عليها.

ذكر في المقدمة تعريفات الأصول والفقه والأحكام الشرعية ومتعلقاتها، وجعل الكتاب الأول في "الكتاب ومباحث الأقوال" فذكر تحته ما يتصل باللغات ودلالات الألفاظ من منطوق ومفهوم، وحقيقة ومجاز، وأمر ونهي، وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، وناسخ ومنسوخ، وغير ذلك من المباحث، ثم أتبعه بالكتاب الثاني، وضمنه السنة وما يلحق بها من مباحث الأخبار، وجعل الثالث في الإجماع وأنواعه، والرابع في القياس وتوابعه، والخامس في الاستسداد، والسادس في التعادل والتراجيح، والسابع في الاجتهاد، ثم جعل الخاتمة في التصوف، على هذا المساق نهج فيه ورتبه في تسلسل منطقي يأخذ بعضه بحجز بعض.

وأما تناوله لمسائل الكتاب وكيفية سيره في ذلك، فإننا نكتفي له بضرب مثال واحد لتوضيح الصورة وبيان الحال : قال رحمه الله في مبحث الإجماع : " وقد نشرنا مسائل الإجماع على (الحد) أحسن نشر واستخرجناها كلها من التعريف على عادتنا في هذا الكتاب التي لم نسبق إليها، وهي البداية بالتعريف، ثم استخراج مسائل الباب منه، بحيث يلوح لدى الفطنة اكتفاؤه بالتعريف، عن النظر في تلك المسائل، لا مكان فهمها إياها منه، ولا يبقى في إعادة ذكرها إلا فائدة التنصيص عليها، وحكاية الخلاف فيها، والتنبيه على قيود قد تعتورها".

وكان دائماً يفتح المسألة بما يراه ويختاره ثم يذكر مذهب الخصم بعد ذلك، ويرى أن افتتاح المسألة بمذهب الخصم لا يحسن لأنه يوهم أن مذهب هو الجادة، وكان يقول : " ومن عادتي أن ما أضربه مثلاً إن كان موجوداً في الكتاب أو السنة أو كلام العرب أو حملة الشريعة أطلقه، وإن كان غير موجود أقول كقولك، أو كما لو قيل ونحوه... " وفي حالة ذكره لخلاف في المسألة كان يقول : " ونحن أبداً نشير بلفظ (ولو) إلى خلاف ضعيف فإن قوى أو تحقق صرحنا به وإلا اكتفينا بهذه الإشارة فاعرف ذلك... " (١)

أما منهج المؤلف^١ في هذا الكتاب فقد كان يتراوح بين السير على طريقة الكتاب الأصل تارة، وبين العدول عنها تارة أخرى .

فكان رحمه الله يجيب على الأسئلة التي وردت عليه إجابة مرتبة بحسب ترتيب الأصل في الغالب، وقد تم له ذلك في القسمين الأولين من تلك الأسئلة^(١)، أما القسم الثالث^(٢) وهو أهم هذه الأقسام، وأكثرها فائدة، فلم يرتبه على نسق الأصل، بل كان يجيب على الأسئلة التي ترد إليه حسب وقوعها ووصولها إليه،

(١) القسم الأول من هذه الأسئلة هو ما أورده عليه الشيخ الامام شمس الدين محمد بن محمد الأسدي الشافعي المتوفى (٨٠٨) وسماه (البروق اللوامع فيما أورد على جمع الجوامع) ويتكون من ثلاثة وثلاثين سؤالاً قال في كشف الظنون ١ / ٩٥٥ أرسل بها الشيخ الاسدي إلى المؤلف وهو في صلب ولايته، فلما رآها أثني عليه وأجابه عنها في مؤلف سماه (منع الموانع) . وقد أجاب المصنف على هذه الأسئلة من حفظه ، دون أن يستعين بكتاب كما ذكر ذلك ص ٥٧ من التحقيق .

وفي نهاية هذه الأسئلة ص ٢٩٦ قرر أن أكثرها لا اختصاص له بجمع الجوامع، بل هي أسئلة تتعلق بالفن من حيث هو، ولكنه أجاب عليها جميعها اتاماً للفائدة .

وأما القسم الثاني من الأسئلة المذكورة ، فقد ذكر أنه أرسلها إليه الشيخ الامام السيد الشريف جمال الدين الخراساني حين ورد عليه من مدينة حلب وكان أكثرها من طراز الأسئلة السابقة قد مضى الجواب عنها في القسم الأول، فتركه ثم أجاب عن الباقي، لذلك جاءت مختصرة في حدود خمس عشرة صفحة .

(٢) هذا القسم هو عبارة عن الأسئلة التي وقعت إليه مفرقة في أثناء الدروس التي كان يلقيها على الطلاب، وفي الحلقات العامة ومجالس العلم التي كان يتصدرها، وهي تربو على القسمين الأولين وفيها من الحوار =

فسواء ال فى القياس، وبعده سؤال فى مباحث الكتاب، ويعقبه سؤال فى الخاتمة ،
ثم يتلوه آخر فى المقدمة، وهكذا كيفما اتفق .

ولو أن المصنف رحمه الله لترم الترتيب فى جميع هذا الكتاب لكان
ذلك أجمل وأفضل ولكان أدعى إلى دراسته والاستفادة منه .

وقد قصد المصنف رحمه الله هذا الترتيب المشوش وذكر أنه سيورد
أسئلة هذا القسم على ترتيب وقوعها وورودها عليه، لا على ترتيب الكتاب (١) ولعله
رحمه الله كان يود أن يرتبها لو امتد به الزمن، ولكنه لم يسعفه الوقت فكان يتمنى
أن تتاح له الفرصة، ويشرح الكتاب شرحا وافيا يبرز فيه مقاصده ومرامي، ويورد
على مثل هذه التساؤلات ضمن ذلك الشرح، على نسق الكتاب الأصل، فكان
يقول: " ولو وسع وقتى لكتابة شرح عليه واف بالغرض منبه على ما رمزت إليه على
وجه الاستقصاء لدخل فى أسفار كثيرة (٢) ، ولكنه لم يجد الوقت الكافى لذلك .
ولذلك كان رحمه الله إذا شرح مسألة أضرب عن نظيرها اكتفاء بشرحها وأحال
القارى إلى فهمه وقوة نظره، كقوله مثلا فى مبحث (لو) .

" وأنت إذا فهمت ما ألقيته إليك فى الآية من المعنى نقلته إلى الأثر
وغيره " (٣) .

وقوله فى مبحث الأداء: " وأنت إذا تأملت ما شرحنا به الأداء والمودى

فى هذا الكتاب عرفت به شرح كلامنا فى القضاء والمقضى فلا تطيل .

" (٤) "

===== الهادى ومن التحقيق والتدقيق ما لا مزيد على حسنه، وإن كان بعض
المباحث فيها لا يخلو من غموض ملحوظ كما سنراه فى بعض مباحث القياس .

(١) انظر ذلك ص ٢٣٠ تحقيق

(٢) انظره ص ٣٠٤ من كتابنا هذا تحقيق

(٣) الآية هى قوله تعالى: " ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده

من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله " ، والأثر هو قول عمر رضى

الله عنه فى صهيبي " لو لم يخف الله لم يعصه " انظر ذلك ص ٩٧ من هذا الكتاب .

(٤) انظر ص ٥٧ تحقيق .

فهذا يشير إلى أنه رحمه الله كان في عزمه أن يقوم بشرح «جمع الجوامع» فيبسطه كل البسط لو تمكن من ذلك، ولكن المنية اخترمته قبل تحقيق ما كان يصبو إليه. ومع هذا فإن «منع الموانع» يعد شرحا مختصرا لمعظم مشكلات الكتاب، كما قد أشار هو إلى ذلك وعلى مساق كلامه، يمكن أن نعرف بقية المسائل التي لم تشرح بتأملنا للمشروحة منها بطريق القياس الذهني، ونقل النظر من هذه إلى تلك .

ولذلك فقد اعتمد الشراح على «منع الموانع» كثيرا في تحليل ألفاظ جمع الجوامع، وفك رموزه ومغلفاته ثم حاولوا السير على هذا المنوال، يعرف ذلك من نظر في تلك الشروحات المتكاثرة . وقد سار المصنف في تناول موضوعات هذا الكتاب على طريقة واحدة وهي أنه يذكر كلامه مورد السوءال من «جمع الجوامع» ثم يردفه بنص السوءال الوارد عليه، ثم يعقب ذلك بإجابته، فيبرهن على صحة عبارة جمع الجوامع وسلامتها، مدلا على ذلك بما يراه من النصوص وأقوال العلماء وهكذا . . .

الفصل الثالث :

فى التعريف بكتبه الأصولية واعتداده بأرائه فيها

وتحتة ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التعريف بكتبه الأصولية الأربعة

المبحث الثانى : اعتداده بأرائه فيها

المبحث الثالث : إنصافه لخصومه ورجوعه إلى الحق فى مواقفه

المبحث الأول

التعريف بكتبه

للتاج السبكي رحمه الله أربعة كتب في الأصول هي الإبهاج ، وشرح المختصر، وجمع الجوامع، وشرحه منع الموانع ، وهذه نبذة مختصرة عنها .

أولا : الإبهاج :

هذا الكتاب كان قد ابتدأه والده الشيخ الامام رحمه الله فعمل منه قطعة يسيرة^(١) انتهى فيه إلى مسألة مقدمة الواجب، ثم أعرض عنه صفحا، فأكماله التاج في حياة والده، حيث انتهى منه سنة ٧٥٢هـ وتوفي والده سنة ٧٥٦هـ وقد سار المصنف في هذا الكتاب سيرا وسطا بين الإيجاز والاطناب، فكان من عادته الاطناب فيما لا يوجد في غيره من الكتب ولا يتلقى إلا منه كبحث مخترع أو نقل غريب أو غير ذلك^(٢) .

والاختصار في المشهور في الكتب إذ لفائدة في التطويل فيما سبق إليه ، فجاء كتابا وسطا بين كتب الأصول .

ثانيا : شرح المختصر :

كان المصنف رحمه الله قد وعد بهذا الشرح الجليل في آخر الإبهاج ، حيث قال : " وفي عزمي والله الميسر أن أضع شرحا على مختصر ابن الحاجب ، بسيطا، لا عذر لي إذا لم آت فيه بالعجب العجيب " محيطا بهذا العلم على أتم وجه^(٣) ، وقد وفى بوعده رحمه الله فوضع شرحا غاية في الإجادة والاستقصاء ،

(١) ذكر صاحب كتاب البيضاوى وأثره في أصول الفقه أن الشيخ الامام كان

معنيا باتمامه لولا فجأة الوفاة وان المصنف إنما أكمله بعد وفاة والده -

وهو خلاف الواقع، انظر كلامه هذا ص ٣٤٥ .

(٢) انظر الإبهاج ١٣٧/٢ .

(٣) راجع الإبهاج ٢٧٥/٣ ، والطبقات ٣٠٧/١٠ .

وكان يذكر نص ابن الحاجب ضمن شرحه، مدمجا له فيه، بحيث يظن القارىء أنه كتاب مستقل، وليس شرحا لكتاب آخر، مع عدم إغفال أى شىء مما ذكره ابن الحاجب، وقد أطلال المصنف النفس فى هذا الشرح، فأطنب وأطاب، وأحاط فيه بعلم الأصول واستوفاه من كل جوانبه... وسمى شرحه هذا "رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب"، وذكر أنه سماه بذلك تبركا بصنيع والده، فإنه كان قد ابتدأه وعمل قليلا من أوله، قال المصنف إنها نحو كراسة وذكر أنه لم يقف عليها (١).

وذكر التاج أنه استمر فى هذا الشرح من أول سنة ٧٥٨ هـ إلى ربيع الآخر سنة ٧٥٩ هـ، حوالى سنة وأربعة أشهر، وقد أشاد به بعد أن انتهى منه فقال فى آخره: "وهو شرح إذا رآه المصنف عرف أننا أتينا فيه بالعجب العجائب، ودعونا قصي الإجابة فأجاب، فهو حقيق بأن تضرب له أباط المطي، فإننا قد وفينا بحق مختصر حلت فيه العقد، وقام مصنفه يرحمه الله بوظيفة الإيجاز التى قصر دونها كل بليغ وقعد، ورمى المعانى من أمد بعيد، وقد قمنا بحقه خير القيام، ورضنا مصاعب النظر بالجد والاهتمام، فجمعنا بحمد الله فى هذا الشرح كل جميل وجليل، ووضعنا بتمامه عنا الحمل الثقيل، وقد لانسلم من حاسد على هذه النعمة، ونعمة الله مقرون بها الحسد" (٢).

ثالثا: جمع الجوامع :

هذا الكتاب مختصر صغير الحجم ولكنه فريد فى بابه قمة بين كتب الأصول وضعه المصنف فى الأصلين أصول الفقه، وأصول الدين، فجاء غريبا فى صنعه، بديعا فى فنه، عبارته شديدة الإيجاز ولفظه يحكى الإعجاز، اعتنى العلماء بشرحه فى سائر الأقطار، وانتشر صيته فى كافة الأمصار، وهو كتاب

(١) انظر الطبقات ٣٠٧/١٠

(٢) انظر ذلك ورقة ٣١٨

الناس شرقا وغربا وبقي كذلك أكثر من ثلاثمائة عام (١) .

وقد أودعه المصنف زيدة مافى شرحيه على المختصر والمنهاج مع زيادات كثيرة ، قال فى الطبقات : " وكتابنا جمع الجوامع مختصر جمعناه فى الأصلين جمع فأوعى ، نفع الله به ، وغالب ظننا أن فى كل مسألة فيه زيادات لا توجد مجموعة فى غيره ، مع البلاغة فى الاختصار " . (٢)

وقال عنه فى كتابنا هذا : لا ولو أن الفطن تأمل صنيعى فى هذا المجموع الصغير الذى سميته 'جمع الجوامع' وجعلت اسمه عنوانا على معناه واطلع على مغزاه فى ذلك ، لقضى العجب العجائب ، وعلم كيف أمطنا القشور عن الباب . .

وقال : " واعلم أنى لم اقتصر فى هذا الكتاب على الموجود فى كتب الأصول ، بل ضمت إليه شيئا كثيرا من كتب المتكلمين والمحدثين والفقهاء وشيئا مجاوزا للحد ، مما سمح به الفكر ، واستخرجه النظر ، ووضع الفهم موضعه ، مما لم أسبق إليه " . (٣)

ثم قال : إن اختصاره متعذر ، وروم النقصان منه متعسر ، إلا أن يأ تسى رجل مبذر مبتر ، فيتجاوز حد نفسه ، فإن فعل ذلك فسيفوت من أغراض الكتاب غرضا عظيما " (٤)

(١) شغل كتاب " جمع الجوامع " جما غفيرا من العلماء وطلبة العلم فى حياة مؤلفه ، وبعد موته واتخذ كتابا دراسيا فى المعاهد الاسلامية وبقي إلى عهد قريب يدرس فى الأزهر يدرسه الطلبة فى أواخر أيام دراستهم . فلما تغير نظام الأزهر عدل عن جعله من الكتب الدراسية وصار من

المراجع المهمة .

(٢) انظر الطبقات ٢ / ٢١٠ .

(٣) انظره ص ٣٠٣ تحقيق .

(٤) انظر ذلك ص ٤٠٤ ، ومع ذلك فقد اختصره شيخ الاسلام فى لب الأصول فقصر ولم يلحق .

وقد وفر الله الكريم دواعى العلماء على الاشتغال بهذا الكتاب شرحاً ونظماً وحفظاً ، فمن أوسع شروحه الآيات البينات لابن القاسم العبادى (ت ٩٩٤) فإنه كتاب جمع فيه من التحقيق والتدقيق، وكثرة الأبحاث والانتصار للمصنف وشارحه المحلى ما يند عن الإمكان، ويتقاصر عنه أبناء الزمان .

ومن أجود شروحه، شرح الجلال المحلى (ت ٨٦٤) المطبوع معه وهو شرح وسط بين الإيجاز والإطناب، وكذلك شرح البدر الزركشى الموسوم (بتشنيف المسامع) وهو أوسع من شرح المحلى وأقدم منه (١) .

رابعاً : منع الموانع :

وهو كتابنا هذا موضع التحقيق، شرح به المصنف ما استغلق واستبهم من مشكلات جمع الجوامع، وقد اعتمد عليه أغلب الشراح فى شروحاتهم لجمع الجوامع ، وهو كتاب وسط كما ترى وضعه المصنف بشكل إجابات على الأسئلة التى وردت عليه، بخصوص جمع الجوامع، وذكر أنه كالشرح لمشكل الكتاب، وكان يسير فى أجوبته بتفاوت بين البسط والاختصار حسب ما يقتضيه المقام، وقد جاء بحمد الله شرحاً وافياً بالغرض، فلا نطيل بذكر تفاصيله إذ هو بين أيدينا والنظر متوجه إليه .

وهناك كتاب خامس للمصنف اسمه (التعليقة) ذكره فى رفع الحاجب فقال : " ولقد أطلعنا فى كتابنا التعليقة فى مسألة الإجماع السكوتى وذكرنا فيه من المباحث ما يعسر على أبناء الزمان . وما لو رحل ذو الهمة لسماعه من بلد إلى بلد لحمد مسعاه " (٢)

(١) وقد ذكر صاحب كشف الظنون كثيراً جداً من شروحه وحواشيه انظر ذلك ٥٩٥/١ وما بعدها .

(٢) انظر رفع الحاجب ورقه ١٢٥ وقد ذكره أيضاً فى مبحث "لو" من كتابنا هذا ص ٩٥ مشيداً بما أودعه فيه من التقرير على منع تعليل الحكم الواحد بعلمتين مختلفتين .

المبحث الثانى

اعتداده بأرائه

التاج السبكى رحمه الله شخصية عبقرية فذة ، هكذا كان بين الناس وكان هو عند نفسه فوق هذه المثابة .

ولذلك نجده شديد الاعتداد بأرائه وأفكاره ، قوى الحجة فى مقالته ، لا يلين بسهولة ، ولا يرجع عن رأيه بأدنى إشارة ، بل يكافح عنه ويحققه ويبرهن عليه ويدققه ويأتى فيه بكل ما يراه ويستطيعه .

واستمع إليه فى الأشباه والنظائر مدافعا عما ذهب إليه فى منع التعليل بعلمتين حيث يقول : " أصل قاطع : لا يجوز عقلا اجتماع علمتين على معلول واحد وهذا الأصل مهدناه فى شرح المختصر ، وناضلنا عنه ، وادعينا قيام القاطع عليه ، وحكمنا بأن مخالفه محجوج ببراہين العقول ، ونزلنا عليه من الفروع الفقهية ما يرتفع عن هم الزمان " (١) .

وقال فى مسألة المكروه بعد تقريرها فى كتابنا هذا : مانصه " وهذا تحقيق هائل عليك بعرض كلام الفقهاء والأصوليين والخلافيين عليه ، فإن أباه فادرا ، ماعداه " (٢)

وقال فى آخر جمع الجوامع مشيدا بمزاياه : " وقد تم جمع الجوامع علما ، المسمع كلامه آذانا صمّا الآتى من أحاسن المحاسن ، بما ينظره الأعمى ، فأياك أن تبادر بإنكار شئى " منه قبل التأمل والفكرة ، ففى كل ذرة منه ذرة " (٣) .

فانظر إلى قوة اعتزازه بنفسه وثقته المطلقة بما يقول ويقرر . .

(١) انظر ذلك ورقة ١٣٢ ،

(٢) انظره ص ٢٠ تحقيق

(٣) انظره ص ١٨٥ من كتاب مجموع المتن .

المبحث الثالث

إنصافه لخصومه ورجوعه إلى الحق

أولاً : إنصافه لخصومه :

رغم اعتزاز المصنف بنفسه واعتداده القوى بما يراه ويقرره، ومناضلته الشديدة في تأييده وتسديده، إلا أنه كان منصفاً لخصمه لا يهتضم قدر أحد من الناس شادياً كان أو متناهماً، وهذه روح علمية سامية وأخلاق فاضلة^(١)؛ وكمثال لما نقول أنظر إلى إشارات باين الحاجب رحمه الله بعد أن رد كلامه في تعريف الأداء حيث قال: "وقد كان ابن الحاجب رحمه الله إماماً مقدماً في الأصول والفقه، والنحو والتصريف، أمسكته البلاغة زمامها، وألقت إليه الفصاحة مقاليدها، وأعطاه الإيجاز كله، ومن بحر علمه اغترفنا، وبكثير علمه اعترفنا، فلا يظنن الظان أنا أردنا في هذا الكتاب مطاولته، فأين الشريا من يد المتطاول"^(٢).

ثانياً : رجوعه إلى الحق إذا تبين له :

المصنف رحمه الله كثيراً ما يختلف كلامه في كتبه فنجد في بعضها يقرر المسألة على وجه ثم يرجع في كتاب آخر فيقررها بوجه مغاير له... وهذه ميزة حميدة فقد كان رحمه الله وفاقاً مع الحق، حثيث سير إليه، لا يتلصق بالرجوع إليه حين يجده لائحاً بيننا، وإن كان قد صرح بخلافه، ومن ذلك أنه صرح في جمع الجوامع، بامتناع تكليف المكروه ثم رجع في الأشباه والنظائر^(٣) وجوز تكليفه، وصحح في مبحث (لو) من جمع الجوامع أيضاً كلام والده ووافق عليه في عدم

(١) قال عنه الشوكاني: إنه كان في غاية الانصاف والرجوع إلى الحق في

المباحث ولو على لسان أحد الطلبة، انظر البدر الطالع ١/٤٦٧.

(٢) انظر ذلك ص ٥٦ من هذا الكتاب.

(٣) انظره ورقة ١٢٢.

كونها امتناعية، ثم أضرب عن هذا الرأي، وحاد عنه في كتابنا هذا، واختار أنها
 «حرف امتناع لا امتناع» (١)

ولذلك كان يقول رحمه الله: "إن الصواب أن يرد من كلام المصنفين
 ما يجب رده، ويقبل ما يجب قبوله، وأما التكليف والتمحل والحمل على أبعاد
 المحامل فشيء تستنكره العقول ولا يرضاه لنفسه ذو نفس أبيّة .

بل كل يوم خذ من قوله ويترك إلا صاحب القبر صلى الله عليه وسلم." (٢)
 لذلك كله فقد امتاز رحمه الله بتحري الصواب فيما يقرره واطراح
 ما خالفه وتزييفه، وإن كان مرويا عن أكابر القوم، فلا تجده يجامل أحدا في
 الحق ولو كان أباه، وهذا من حميد سيرته رحمه الله ورضى عنه .

(١) حيث قال رحمه الله : واعلم أنا كتبنا هذا ونحن نوافق الوالد إذ
 ذاك على ما رآه - أي في عدم كونها امتناعية - ولذلك عبرنا عنه بلفظ
 الصحيح وأما الذي آراه الآن وأدعى ارتداد عبارة سيبيويه إليه
 وإطباق كلام العرب عليه فهو قول المعربين، وقول الوالد إنه منقوض
 بما لا قبل به مما لا يظهر لي .

انظر ذلك ص ٨٨ من كتابنا هذا . .

(٢) انظر رفع الحاجب ورقة ٤٠٩ .

الفصل الرابع :

فى مكانته العلمية والمجالات التى برز فيها وفاق

ويشتمل على تسعة مباحث :

- المبحث الأول : ابن السبكي الأصولي
- المبحث الثانى : ابن السبكي الفقيه
- المبحث الثالث : ابن السبكي المجتهد
- المبحث الرابع : ابن السبكي المحدث
- المبحث الخامس : ابن السبكي المؤرخ
- المبحث السادس : ابن السبكي النحوى
- المبحث السابع : ابن السبكي الأديب
- المبحث الثامن : ابن السبكي الشاعر
- المبحث التاسع : ابن السبكي المصلح الاجتماعى

تمهيد

لقد كان التاج السبكي رحمه الله دائرة معارف واسعة احتوت إلى جانب العلوم الدينية معرفة مفصلة في التاريخ والأدب واللغة والكلام وسائر فروع المعرفة في عصره، فكان طوداً عظيماً في كافة الفنون، تقدم على أقرانه، وفاق أهل زمانه، وصار أحد الجهابذة الأفذاذ من علماء الإسلام، وقد امتاز رحمه الله بعقلية ذكية وفطرة عجيبة، وقريحة متقدمة أعجب الخلق حسن كلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، فانتشر ذكره في الآفاق، وورق الحظ الأوفر في حسن التصنيف وجودته، والنصيب الأكبر في جزالة التعبير وسهولته، واليد الطولى في كشف المعضلات، وفتح المغلفات، والتبحر في أصناف العلوم أصولها وفروعها . .

وهذه آثاره العلمية تشهد بذلك، فقد توج بها هامات الزمان، وجاءت من التحقيق والتدقيق بمكان مكين وقدر رفيع .

ولا غرو في ذلك فقد كان لا يقدم على التأليف إلا بعد أن يستكمل كافة أسبابه، ثم يباشره بعد ذلك بفطنة، ونباهة وذهن يقظ، ونفس مرتوية من العلوم وكان أميناً في تصانيفه، فإذا نقل من كتاب أو استفاد منه، لا يستنكف عن أن يعزو تلك الفائدة إلى قائلها، بكل أمانة، فلذلك بورك له في علمه وحاله، وانتفع الناس بمصنفاته في سائر الأمصار، فانتشرت في حياته وكانت بعد موته أكثر شيوعاً واستيلاءً على مقاليد الخلق .

وبالجملة فقد كان رحمه الله سيد زمانه (١)

(١) قد يظن القارىء أنني أطنب في وصف التاج السبكي وأبالغ في الإشادة به ولست وحدي الذي يفعل ذلك، فقد وجدت الكثير من العلماء والمؤرخين مطبقين على تعظيمه وتبجيله، وأقوال العلماء معتبرة . . ثم إنني لمعايشتي معه مدة، وقراءتي الكثير من كتبه، تبدت لي من خلالها سجاياه الحميدة، وشخصيته الفذة، وتوثق لدي عنه ذلك السماع

وللسيادة معنى ليس يدركه . . من طالب الذكر إلا باحث فهم
وهذه بعض المجالات العلمية التي برز فيها وحققها وقام فيها على قدم
وساق ، نسوقها إليك بإيجاز في المباحث التالية :

الجميل . . فكنت معه كما قال الشاعر :
وما زالت الركبان تخبر عنكم . . بكل جميل والزمان يحقق
فلما التقينا خلت فوق الذي به . . سمعت فنقل المجد عنكم مصدق

المبحث الأول

أبن السبكي الأصولي

من المعروف أن علم الأصول مستمد من اللغة والكلام والأحكام الشرعية فهذه الثلاثة الفنون هي مادة هذا العلم.

وقد كان التاج السبكي رحمه الله إماما مبرزا في كل منها ، فهو ضليع في اللغة والنحو، له في ذلك القدم الراسخة، والباع الطويل ، ويظهر ذلك من بعض مباحثه في كتابنا هذا كما سيتبين لك .

وهو في الكلام وقضايا التوحيد والاعتقاد، أشد تمكنا منه في غيره، وأما الأحكام الفقهية فقد سلمت إليه زمامها، وألقت إليه مقاليدها فصار فيها نسيج وحده وفريد دهره .

لذلك كله فقد كانت تصانيفه رحمه الله فسي أصول الفقه، تمتاز بالدقة والاستيعاب، وحسن العرض والمناقشة الجادة الهادفة، مما يدل على كونه من حفاظ هذا الفن ومجتهديه .

قال صاحب الآيات البينات : " وناهيك بجلالة المصنف وتقدمه في حفظ هذا الفن على غيره . . فإنه غير مقلد لأحد من الأصوليين بل لـه اجتهاده الخاص في علم الأصول " (١)

ومن نظر كتبه الأصولية وجدها في القمة بين كتب الأصول ، فقد نظمها أحسن نظم وكساها من كلامه أجزل لفظ، وأودعها تحقيقات باهرة وتدقيقات فريدة، تدل على السعة والعمق، فلا تجد له حشوا في كلامه البتة، بل كل لفظ في تصانيفه يتضمن أكثر من معنى، والناظر في كتبه يعلم ذلك علم

اليقين وخاصة إذا وقع النظر من ناقد بصير .

وقد كتب في الأصول أربعة كتب أشار هو إليها في الأشباه والنظائر وأشاد بما احتوت عليه من الفروع المخرجة على قواعد الأصول فقال :

" أعلم أن لنا في أصول الفقه مصنفات اشتملت على قدر كبير من الفروع المخرجة على الأصول، من نظره عرف أنا لم نسبق إليه ، ومن أحاط بما في كتبنا الأربعة ، وهى شرح مختصر ابن الحاجب، وشرح منهاج البيضاوى ، والمختصر المسمى " جمع الجوامع" ، والأجوبة عن الأسئلة التى أوردت عليه المسمى " بمنع الموانع" من الفروع المخرجة على الأصول أحاط بسفر كامل من ذلك " (١) .

وقد أشهرته هذه المؤلفات فى أصول الفقه فأصبح بين الأصوليين ملحوظا بعين الاعتبار .

المبحث الثاني

ابن السبكي الفقيه

الفقه ملكة راسخة في النفس وبصيرة كاملة، يتمكن بها من قامت به من الاطلاع على أسرار الشريعة، ومن استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، التي هي الكتاب والسنة والاجماع والقياس، وصاحب تلك الملكة الراسخة هو الفقيه المجتهد على الحقيقة، وقد كان التاج السبكي رحمه الله بهذه المكانة، فهو فقيه مرموق ذو دُرّة عالية في مآخذ الظنون، في مجال الأحكام الشرعية، ولديه فقاهة نفس حقيقية، وهذه الصفة هي أنفص صفات علماء الشريعة، لكونها تكسب صاحبها قوة الفهم على التصرف، وتعطيه دراية تامة في الجمع والتفريق، والتصحيح والإفساد، ونحو ذلك مما هو ملاك صنعة الفقه، كما أن للتاج السبكي رحمه الله دراية وفهما كاملين بعلم الخلاف ومآخذ الأئمة وهو العلم الذي لا يصير المرء فقيها بدونه البتة ..

قال في الطبقات " إن المرء إذا لم يعرف علم الخلاف والمآخذ لا يكون فقيها حتى يلج الجمل في سم الخياط، وإنما يكون رجلا ناقلا، نقلا مخبطا، حامل فقه إلى غيره، لا قدرة له على تخريج حادث بموجود، ولا قياس مستقيـل بحاضر، ولا إلحاق غائب بشاهد، وما أسرع الخطأ إليه وأكثر تزامم الفلـط عليه وأبعد الفقه لديه .. " (١)

ولمعرفة مقدار رسوخ المصنف في الفقه وروائه من علوم الشريعة نسوق لك هذه الحكاية عنه: " قال في آخر الأشباه والنظائر بعد أن تكلم على أنواع المجتهدين ومراتبهم: قال: " وقد أردت أن أذكر لك هنا آية كانت ابتداءً درسي بالمدرسة الأمينية، في يوم الأحد ثالث شهر ربيع الأول سنة ٧٦٣ هـ،

وذلك أن بعض من لا أهلية له، سعى في هذه المدرسة، وكاد يقدم عليّ، لقربه من الدولة، فأحببت أن أريه كيف التدريس، وكيف ينبغي لمن طلب مناصب العلماء أن يكون؟ (١) فعمدت إلى آية من الكتاب العزيز هي قوله تعالى: " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله " (٢) الآية واستنبطت منها ما وصلت إليه قوتي ثم قلت بعد الخطبة مانعه . . . " وأنا إن شاء الله تعالى استخرج من هذه الآية دون ما قبلها وما بعدها من فنون الفوائد في أنواع العلوم، ما يزيد على مائة وعشرين فائدة، في الفقه، وأصوله، وأصول الدين والحديث، والتفسير، والطب، والفراصة وغير ذلك، وشرطى في ذلك على نفسي أن لا أذكر شيئا سبقت إليه، ولا أتعدى الآية إلى غيرها . . . " (٣) قلت: " تبارك الله ماذا تبليغ السهم " .

قال ابن كثير: " وقد حضر عنده في هذا الدرس خلق كثير من العلماء، والأمراء، والفقهاء، والعامة، وكان درساً حافلاً، استنبط فيه من الآية المذكورة أشياء حسنة، وذكر ضروباً من العلوم، بعبارة طليقة جارية معسولة . أخذ ذلك من غير تلعمش ولا تلجلج، ولا تكلف، فأجاد وأفاد، وشكركم الخاصة والعامة من الحاضرين وغيرهم، حتى قال بعض الأكابر إنه لم يسمع درساً مثله . . . " (٤) .

فانظر إلى آثار رحمته الله في هذا الرجل، وما أودعه الله فيه من الفهم والاستبصار في أسرار كتابه وفي أمور شرعه، يوثق الحكمة من يشاء، ومن يوثق الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً " (٥) .

-
- (١) قالت أياديها للحساد عن كذب . . ما أقرب العز إلا أنه همم
 (٢) الآية (٥٤) من سورة النساء .
 (٣) انظر الأشباه والنظائر ورقة ع ٢١٧ .
 (٤) انظر البداية والنهاية ١٤ / ٢٥٠ .
 (٥) الآية (٢٦٩) من سورة البقرة .

المبحث الثالث

ابن السبكي المجتهد

برغم أن التاج السبكي رحمه الله كان شافعيًا ضليعًا من أركان هذا المذهب والذابين عنه والمتشددين في تأييده، والمغتبطين بتقليد إمامه، إلا أنه قد ادعى لنفسه رتبة الاجتهاد المطلق، لتوفر شروطه فيه، ولا يخرج ذلك عن أن يكون تابعًا للإمام الشافعي، وسالكًا طريقته في الاجتهاد، ومعدودًا من أصحابه .. فإنه لا منافاة بين الحالتين (١) .

(١) المجتهد أنواع : أعلاها المجتهد المستقل وهو الذي استقل بقواعده لنفسه يبني عليها الفقه خارجًا عن قواعد المذاهب المقررة، وهذا شيء قد فقد من دهر، قال السيوطي : " بل لو أراد الإنسان اليوم لا تمتنع عليه ولم يجز له، لأن أصول المذاهب وقواعد الأدلة منقولة عن السلف فلا يجوز أن يحدث في الأعصار خلافها " وذكر عن ابن الأمير المالكى : أن أتباع الأئمة الآن الذين حازوا على شروط الاجتهاد، مجتهدون ملتزمون أن لا يحدثوا مذهبًا آخر، أما كونهم مجتهدين فلأن الأوصاف قائمة بهم، وأما كونهم ملتزمين فإن إحداث مذهب زائد بحيث يكون لفروعه أصول وقواعد مباينة لسائر قواعد المتقدمين متعذر، لاستيعاب المتقدمين لسائر أساليب الشريعة "

ثانيها : المجتهد المطلق وهو الذى وجدت فيه شروط الاجتهاد التى اتصف بها المجتهد المستقل، لكنه لم يبتكر لنفسه قواعد تخصه، بل سلك طريقة إمام من أئمة المذاهب فى الاجتهاد، فهذا هو المطلق فبينه وبين المستقل عموم وخصوص، فكل مستقل مطلق وليس كل مطلق مستقلاً .

ثالثها : المجتهد المقيد فى مذهب إمامه، وهو المستقل بتقرير أصول المذهب بالدليل غير أنه لا يتجاوز فى أدلته أصول إمامه وقواعده ويسمى مجتهد التخريج، وأقل منه مجتهد الترجيح ثم مجتهد الفتيا انظر كتاب الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١١٢ وما بعدها .

قال السيوطي : " وقد ادعى التاج السبكي رحمه الله لنفسه الاجتهاد المطلق ^(١) ، كتب مرة ورقة لنائب الشام في ضائقة وقعت له فقال في آخرها : " وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق لا يقدر أحد أن يرد علي هذه الكلمة " قال السيوطي والرجل مقبول فيما قاله عن نفسه فإن العلماء أدين وأورع وأخشى لله من أن يقولوا غير الحق ؟ والظاهر قبول قول العالم في الأخبار عن نفسه أنه وصل إلى حيز الاجتهاد إذا كان عدلاً قياساً على قولهم من ادعى الصحبة قبل قوله في ذلك إذا كان عدلاً لأن عدالته تمنعه من الكذب ، ولا نظر إلى اتهمه بكونه يدعي لنفسه رتبة عالية . . (٢)

(١) وقد روجع في ذلك بأن ادعاه هذا مردود بقول الغزالي في الوسيط " وقد خلا العصر عن المجتهد المستقل " فقال " هذا القول لم ينفرد به الغزالي بل سبقه إليه آخرون ، وقد نظرت في هذا الكلام وفكرت فيه وظهر لي أنه ومن سبقه إليه إنما أرادوا خلا عن مجتهد قائم بأعباء القضاء فإنه لم يكن يلي القضاء في زمنهم مرموق ولا منظور إليه بكثير علم بل كانت جهابذة العلماء منهم يربون بأنفسهم عن القضاء ، والا فكيف يمكن القضاء على الأعصار بخلوها عن مجتهد ؟ هذا منكر من القول . . . "

هكذا نقله العطار عن كتابه (ترشيح التوشيح)

انظر حاشية العطار ٢ / ٤٢٣ .

(٢) انظر كلام السيوطي في حسن المحاضرة ٣٢٨ / ١ ، الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١٩٧ ، تقرير الاستناد في تيسير الاجتهاد ص ٦٥ .

بعض اختيارات المصنف التي خالف فيها المذهب

الشافعي

لا يوجد للتاج السبكي رحمه الله كتب فقهية بين أيدينا نستطيع من خلالها أن نعرف اختياراته في الفقه فكتبه الفقهية مفقودة الآن، ولكننا من مطالعنا لكتابه الأشباه والنظائر، وبعض كتبه الأصولية حصلنا له على بعض الاختيارات والتي منها قوله :

(١) " المشهور في المذهب جواز قول المصلي " الله الأكبر " أو " الله العزيز

أكبر " قالوا ولا يضر تغيير بسيط كهذا .

قال المصنف " وأنا أختار أنه لا يجزى شيء غير " الله أكبر " لقوله صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتموني أصلي " (١) .

قال : ثم أنا اعتقد أن " الأكبر " أبعد عن الاجزاء من " الله العزيز أكبر " والأصحاب مطبقون على العكس من هذا ، وإنما خالفهم لأن " الله العزيز أكبر " ليس فيه شيء من التغيير ، وإنما هو فصل يسير قد يغتفر ، بخلاف " الأكبر " .

(٢) وفي باب النهي من الأشباه والنظائر قال : " النهي إذا رجع إلى الذات اقتضى الفساد عند علمائنا قاطبة .

قال : وهي من أمهات مسائل الخلاف ، وقد اعتنا صحت على قوم من المحققين ، منهم الغزالي ، فذهبوا إلى أراء معضلة تداني مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، ثم قال : والذي استقر عليه رأي أن النهي عن الشيء يقتضى صحته ، وعدم الاعتداد به في نظر الشارع ، فإن كان في العبادات اقتضى صحته وعدم إجزائه ، وإن كان في المعاملات اقتضى صحته وعدم استقراره وسلط عليه الفسخ ، هذا ما رأيناه مذهباً ، وإن كنا

نصرنا في شرح المختصر وغيره من مصنفاتنا الأصولية غيره، ثم نحن لا نفرع عليه لكونه حائدا عن مذهب الشافعي رحمه الله، فنجرى على قاعدة المذهب .

(٣) وفي مبحث المكروه على أحد شيئين هل يعد مكروها أولا ؟ قال في الأشباه : " الأصح عند الرافعي والنووي الثاني ، وفي نظري أن الأول هو الأول " صح ، ولا فرق عندي بينه وبين الإكراه على فعل معين ، إلا ما قيل من أن هذا يجد مندوحة عن فعل أحد الشيئين بفعل الآخر منهما ، وذلك لا يجد مندوحة ، قال : وليس هذا الفرق بطائل ، فإن القول في المختص بالفعل منهما مقول في الآخر ، وكل قول انعكس بنفسه بطل من أصله " (١)

وقال في الأشباه أيضا " الصحيح عندي أن الأحكام ستة الواجب والمندوب ، والحرام ، والمكروه ، وخلاف الأولى ، والمباح " ، وذكر أن افتراق خلاف الأولى مع المكروه اختلاف الخاصين فالمكروه ماورد فيه نهى مخصوص كترك تحية المسجد ، وخلاف الأولى ما لا نهى فيه كترك سنة الظهر .

وفي مسألة أن دلالة النكرة المنفية هل هو باللزم أو بالوضع ؟ اختار أنه باللزم في المبنية على الفتح وبالوضع في غيرها : قال : والقول باللزم على الإطلاق هو قول الحنفية وبالوضع مطلقا قول الشافعية (٢) .

(١) انظر لأقواله هذه الأشباه والنظائر ورقه ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، وانظر

الروضة للنووي ١٣٨ / ٩ .

(٢) انظر الأشباه والنظائر ورقه ١٤٤ ، وكتابنا هذا ص ١١٠

المبحث الرابع

ابن السبكي المحدث

التاج السبكي رحمه الله له باع طويل في علم الحديث ، فهو رجل محدث على الحقيقة ومن نظر كتابه الطبقات عرف هذا المعنى وقامت له البينة على صدق هذه الدعوى ، فنجد في هذا الكتاب يقعد القواعد الحديثية المهمة التي لا توجد عند غيره . ففي كلامه على الجرح والتعديل مثلاً ذكر قول العلماء " إن الجرح مقدم على التعديل " ثم استدرك عليه يقول : " إذا سمعت هذا الكلام ورأيت الجرح والتعديل ، وكنت غرا بالأمر ، أو قدما مقتصر على منقول الأصول ، حسبت أن العمل على جرحه ، فإياك ثم إياك ، والحدرك كل الحدرك من هذا الحساب ، بل الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته وكثر ماد حوه ومزكوه ، ونادر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبي أو منافسة دنيوية أو غير ذلك ، فإننا لانتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيه بالعدالة وإلا فلو فتحنا هذا الباب وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة ، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون وهلك فيهم هالكون . . . " (١) .

ثم أضاف على قولهم " لا يقبل الجرح إلا مفسراً " فقال : إنما يكون هذا في جرح من ثبتت عدالته واستقرت ، فإذا أراد رافع رفعها قيل له اثبت ببرهان على هذا ، أما من ثبت أنه مجروح فيقبل قول من أطلق جرحه ، لجريانه على الأصل المقرر عندنا ، ولا نطالبه بالتفسير إذ لا حاجة إلى طلبه .

ثم إننا لا نطلب التفسير من كل أحد ، بل إنما نطلبه حيث يحتمل الحال

(١) انظر الطبقات ٩ / ٢ ، وقد شهد الذهبي للمصنف بأنه محدث جيد ،
انظر الطبقات ٣٩٩ / ١٠

شكا . . أما إذا انتفت الظنون، وكان الجرح حبرا من أحبار الأمة مبرأ عن مظان التهم، أو كان المجروح مشهورا بالضعف متروكا بين النقاد فلا نتلعثم عند جرحه ولا نحوج الجرح إلى تفسير، بل طلب التفسير والحالة هذه طلب لغبية لا حاجة إليها . . " (١) .

فهذا يدل على مشاركته مشاركة قوية في الحديث وعلومه وقد شهد له العلماء بذلك قال عنه شيخه الذهبي : " كتب عنى الأجزاء وأرجو أن يتميز فى العلم " (٢) .

وقال ابن حجر : " إنه أمعن فى طلب الحديث وكتب الأجزاء والطباق حتى مهر وهو شاب، وخرج له ابن سعد مشيخة حدث بها " (٣)

وخرج جزءاً على حديث " المتيا يعين بالخيار " فقال والده فى ذلك :
عبد الوهاب مخرجه . . من فضل الله علي نشأ
يارب قه ما يحذر . . واقدر فيه الخيرات وشاء (٤)

وله كتاب الأربعين خرج زمن الشباب وأنشده بسببه شيخه أبو الفتح السبكي قوله :

أجدت الأربعين فدمت تاجا . . لأهل العلم ذا فضل مبين
وأرجو أن أراك رفيع قدر . . وقد جاوزت حد الأربعين (٥)

(١) ثم أخذ يضرب لذلك، بعض الأمثلة : راجع الطبقات ٢/ ٢٢ وما بعدها .

(٢) انظر المعجم المختص ص ١٥٢ .

(٣) راجع الدرر الكامنة ٢/ ٤٥، وفى كتاب الوفيات ٢/ ٣٦٣ أن ابن سعد خرج له معجما فى مجلدين، وانظر البدر الطالع ١/ ٤١٠ .

(٤) انظر الطبقات ١٠/ ١٩١ .

(٥) المرجع السابق ٩/ ١٧١، وللمصنف أيضا تخريج لأحاديث إحياء علوم الدين للغزالي وقد ذكر فى الطبقات ٦/ ٢٨٧ فصلا فى الأحاديث التى لم يجد لها إسنادا فى كافة كتاب الإحياء .

وقال فيه برهان الدين القيراطي: إنه محدث ماهر متبحر في علم الحديث ، سيد حافظ مختص بعلو الاسناد ، ثم أنشد في إطرائه يقول :
إليك والا لاتساق الركائب . . . وعنك وإلا فالمحدث كاذب
وقوله :

علم الحديث إلى أبي نصر غدا . . . من دون أهل العصر حقا يسند
أضحى أمير المؤمنين بقية . . . ويد الخلافة لاتطاولها يد
إلى آخر كلامه فيه رحمه الله (١) .

فانظر هذه الأقوال وتبين مقدار تمكنه في هذا الفن .

(١) أورد المصنف كلام القيراطي هذا في الطبقات ٩ / ٣٥٤ وما بعدها .

المبحث الخامس

ابن السبكي المـوـرـخ

يعد التاج السبكي رحمه الله من عظماء المؤرخين (١) الذين سبروا حوادث التاريخ، وحققوا وقائعهم، ودرسوا سير النبلاء والعظماء الذين كان لهم مواقف مشهودة وآثار باقية في سجلات التواريخ .

ولا أدل على ذلك من كتابه " الطبقات " فهو الكتاب الذي لا نظير له بين كتب التراجم الموجودة بين أيدينا ، فقد وضعه التاج رحمه الله على نمط فريد من التحقيق والاستيعاب، وذكر أنه لم يضعه إلا حاويا مغنياً ناظره عن الالتفات إلى غيره من كتب التواريخ (٢) وقد ساعده على ذلك أنه كان منذ الصغر يردد النظر في أخبار الأخيار ويترقب أحوالهم ليحيط بمجمل ما احتوته أعمارهم وأزمانهم .

(١) ولذلك نراه رحمه الله في طبقاته يضع قواعد نافعة في المؤرخين ، ويذكر أنهم على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس ، وقد ينقلون مجرد ما يبلغهم من صادق أو كاذب ، ثم يشترط أن يكون المؤرخ عالماً عادلاً ، عارفاً بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه ، فيقول : " إن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ورفعوا آخرين ، إما لتعصب أو لجهل ، أو لمجرد الاعتماد على نقل من لا يوثق به أو لغير ذلك من الأسباب ، فلا بد في المؤرخ من الصدق في القول وحسن العبارة والمعرفة بمدلولات الألفاظ ، وإذا نقل سمي المنقول عنه ، وأن يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الاطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره " .

أنظر الطبقات ٢٢/١ وما بعدها ، معيد النعم ص ٧٤

(٢) راجع الطبقات ٣٢١/١

وكان يجد من نفسه ميلا شديدا إلى الإلمام بالوقائع وتلقف ما صنعه

السابقون فصدق فيه قول الشاعر :

أ تانى هواها قبل أن أعرف الهوى . . فصادف قلبا خاليا فتمكننا

وهو مع ذلك من هو ، خبرة ودراية بالأمر ، لا يسجل كل ما يقع عليه

نظره ، أو يحتك به سمعه ، بل لا يثبت إلا ما ارتضاه الحق فى نفسه ، بعد

أن يخبره وينقده نقد الخبير البصير ، واستمع إليه يقول عن هذا الكتاب :

"ومن نظر كتابى هذا علم كيف كان البدر يغيب وأنا شاهد ، وتيقن

أنه وظيفة عمر رجل ناقد" (١) .

وكتاب الطبقات لم يقتصر فى الواقع على الجانب التاريخي ، وإنما

اشتمل على حديث ، وفقه ، وأدب ، وفوائد أخرى تنسل إليها الرغبات من كل حدب .

فتراه يذكر فيه ترجمة الرجل مستوفاة على طريقة المحدثين والأدباء ثم يورد

فى أثناء ترجمته نكتا بديعة تسحر عقول الألباء ، وكان رحمه الله فى سيره هذا

مع الأئمة ممن إذا سمع صالحا أشاع ، وإذا رأى ربيبة دفن (٢) .

(١) الطبقات ٢٠٩ / ١ .

(٢) ولذلك كان يقول رحمه الله تعالى : " ينبغى لك أيها المسترشد أن

تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم فى

بعض ، إلا إذا أتى ببرهان واضح ، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين

الظن فدونك ، وإلا فأضرب صفحا عما جرى بينهم ، فإنك لم تخلق

لهذا فاشتغل بما يعينك ودع ما لا يعينك ، ثم أضاف يقول :

ولا يزال طالب العلم عندى نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف

الماضين ، ويقضى لبعضهم على بعض ، فأياك ثم إياك أن تصفى إلى

ما اتفق بينهم . . . فإنك إن اشتغلت بذلك خشيت عليك الهلاك

فالقوم أئمة أعلام ولأقوالهم محامل ، وربما لم يفهم بعضها فليس لنا

إلا الترضى عنهم ، والسكوت عما جرى بينهم ، كما يفعل فيما جرى بين

الصحابه رضى الله عنهم " ، راجع الطبقات ٢٧٨ / ٢ .

وقد اختار لهذه الطبقات أن تظهر على هذا المستوى من التنويع ، لتكون أشرح لنفس القارىء ، وأجذب لعقله وشعوره ، فلذلك نجده يقول عنها ، " فبينما الفقيه منها فى عويص الفروع المشتبكة إذا به فى رياض من آداب تحرك فاقدا الحركة ، وبينما الأديب فى نشر حلل مطرزة إذا به فى مواعظ وحكم موجزة ، وبينما المريد فى سلوكا لطريق ، إذا به فى أحاديث مسندة يعلم أنها من باب التوفيق ، وبينما المؤرخ فى حكايات انقضى زمانها إذا به قد عثر على تراجم يعز على المنقب وجدانها وقد جاء بحمد الله مجموعا آخذا من كل فن بنصيب .

قال : وهذا المظهر أجلب للمطالعة وأخلب للألباب . . (١)
ثم أشاد المصنف بكتابه هذا أبلغ إشادة ، وذكر أنه اشتمل على بحر زاخر من غرائب المسائل ، وقدر وافر من عجائب الأقوال والدلائل ، وغيث هامع من العلم تتقاصر عنه الأنواء ، وأنه كتاب أصيل ، يتلقاه ذو المعرفة باليمين ، ثم أنشد يقول :

لما كرمت نطقت فيك بمنطق . . حق فلم أكذب ولم أتحوب
ثم قال : نعم والله إنه لكتاب إذا قال أصغت الاسماع لما تلفظ به ، وإذا صال زحزح كل مشكل من المشكلات ومشتبه . .

ما زال يقصر كل حسن دونه . . حتى تفاوتت عن صفات الناعت
ومن أنفق من خزانة علمه لم يخش من ذى العرش إقلا لا ، ثم أضاف يقول :
وكأنى بمن يحسد الشمس ضوءها ويجهد أن يأتى لها بنظير ، ويطاول منه الشربا
وما أبعد ها عن يد المتناول ، فيرجع إليه بصره خاسئا وهو حسير ، إلى آخر
هذا الاطراء (٢) .

(١) انظر الطبقات ٢٠٩/١ .

(٢) انظر ذلك ٢١٢/١-٢١٥ ، ولا حظ قوله " فمن رام معارضته وقال ==

وهو فخر زائد كما ترى يمكن أن يؤخذ عليه لولا اعتبارات من سنه وحساده وما يعده العلماء من التحدث بنعمة الله فقد كان سنه صغيراً - وحساده كثير، فأراد أن يهزهم هزات معنوية هي نوع من الدفاع عن النفس لذلك نراه رحمه الله عندما تفتن لهذا الفخر رجع عنه سريعاً، حيث قال :

"ولست أقول هذا لأنفق البضاعة بل لأشوق أرباب الصناعة وأجمع على سننه أهل السنة والجماعة . . . إلى أن يقول : فعند ذلك قلت للفخر والسمعة بل لإبانة الحق وحسن الصنعة .

وأنا مع وصفى هذا الكتاب ما أبرى كتابى ولا نفسى من شك ولا ريب ، ولا أبيع به بشرط البراءة من كل عيب .

ولا أدعى فيه كمال الاستقامة ولا أقول بأن الطبقات جمع سلامة بل إذا دار فى خلدى ذكر هذه الطبقات اعترفت بالقصور، وسألت الله الصبح الجميل (١) "

== كم ترك الأول للآخر فسبيل الحاكم بينى وبينه القائم بالنصفة أن يقول ما أمرك برشيد أيها القائل إنه لقادر، ما لم تنبذ هذا الكتاب وراءك وتحاول قواك غير متأمل فيه ولا ناظر " إلى آخر كلامه .

(١) انظر الطبقات ٢٠٩/١ وما بعدها .

المبحث السادس

ابن السبكي النحوي

للتاج السبكي رحمه الله دراية تامة بعلوم العربية ، وهذا الأمر واضح جلي ، يلمسه القارئ لأول وهلة عند تصفحه لكتابه القيم " الأشباه والنظائر " ففيه الكثير من المباحث النحوية المجودة ، وفي كتابنا هذا تجد له بعضاً من هذه المباحث النحوية ، التي تبرز فيها قدرته في هذا العلم وسعة اطلاعه وتفوقه ، فتراه يصول فيها ويجول ، وكأنه من أهل الاختصاص في هذا الفن ، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده في مبحث (لو) وفي تفرقة بين اسم الجنس وعلمه ، وفي مبحث الصحة عند تعرضه لفائدة تقديم الخبر على المبتدأ .

وكذلك في كلامه على قولهم (لا غير) وأنه لحن ، وقد وقع فيه ابن مالك وأن الصواب عنده أن يقال " ليس غير " وذكره الوجوه في ذلك .

وأيضاً في كلامه على اتحاد المبتدأ بالخبر (١) ، وفي غير ذلك من المباحث التي تعرض لها فتراه يسوقها بدراية وعمق ، ولا غرابة في هذا فإن الأصولي لا بد وأن تكون يده باسطة في علم النحو واللغة . لذلك كان الأصوليون نحاة بالدرجة الأولى ، فإنهم شديداً الاعتناء بالفاظ الكلام ومعانيه على حد سواء ، ومالم يكن المرء ريان من علم النحو فلن يتمكن من الاستقلال بالنظر في أمور الشرع .

(١) انظر هذه المباحث ص ٧٢ ، ١٢٢ ، ٢٥٢ ، ٢٢٧ ، ٤٦٢ ، وانظر

كذلك لطبقات ٢٨٠ / ٩ وما بعدها

المبحث السابع

ابن السبكي الأديب

الأدب سمة حميدة من سمات العلماء المبرزين ، وصفة فضل يودها كثير من الناظرين ، ولكنه صعب المراس لا يسلس قياده لكل طالب بل لا يلين إلا لمن وطن عليه العزم ، وكد فيه ذهنه وشعوره ، واشتغل به ليله ونهاره ، وألح في تحصيله وتذوقه ، واستوثق من علومه ، وكان ذا ملكة مواتية ، وقريحة مطاوعة ، واسع الخيال مرهف الحس ، ذا ثراء لغوي وفكر لماح . .

وقد كان التاج السبكي رحمه الله رجلا من هذا الطراز ، درس الأدب وهو صغير على كبار مشايخ عصره فتلقفه بنفس طروب وعقل رغوب ، حتى ربت لديه الملكة الأدبية واستقامت ، وأصبحت سجية من سجايه ، وظهرت آثارها في نظمه ونثره ، فوجد له الشعر الرائع ، والنثر الفائق ، ومن نظر ما دار بينه وبين معاصره الأديب الصلاح الصفدي ، من المراسلات الأدبية البليغة والأشعار الرقيقة علم أنه رحمه الله قد كان ممن تخضع له رقاب البلغاء ، وتجري في مضماره سوابق الأدباء (١) ، وبالجمله فمن تصفح كتابه (الطبقات) عرف كيف أن له نظرات ثاقبة نافذة ، في اختيار كلمة دون كلمة أو تفضيل شاعر على شاعر ، أو أسلوب على أسلوب .

وهذه بعض الأمثلة نسوقها لتوضيح الصورة :

ذكر في ترجمة الشيخ تاج الدين المراكشي المتوفى (٧٥٢) هـ أنه

دخل إليه مرة وهو ينشد قول ابن بقي :

حتى إذا مالت به سنة الكرى . . زحزحته شيئا وكان معا نقبي

أبعدته عن أضلع تشتاقه . . كي لا ينام على وساد خافقي

(١) راجع الطبقات ٦ / ١٠ وما بعدها ، وانظر كذلك مراسلاته مع ابراهيم القيراطي ٣١٤ / ٩ وما بعدها .

وقول الحكم ابن عقال :

إن كان لابد من رقاد .. فأضلعي هاك عن وساد
فتم على خفقها هدوءا .. كالطفل في نهنه المهاد
وهو ومن عنده يقولون إن قول الحكم أجدر بالصواب فإنه لا يناسب المحب أن
يبعد حبيبه ..

قال التاج : قلت : " إن ابن بقي وإن أساء لفظا حيث قال :
(أبعدته) ، فقد أحسن معنى لأنه وصف أضلعه بالخفقان و الاضطراب الزائد
الذى لا يستطيع الحبيب النوم عليها ، فقدم مصلحته على مصلحة نفسه ، وأبعده
عما يقلقه ولو قال : " أبعدت عنه أضلعا تشاقه " لأحسن لفظا كما أحسن
معنى ، وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشبه اضطراب
سرير الطفل وهذا نقص " (١) .

وذكر في موضع آخر قول الشاعر : (٢)

يامن وفيت له العهود وما وفى .. أصفيت منى الوداد وما صفا
قابلت محض مودتي بقطيعة .. وهجرتنى طبعاً وزدت تكلفاً
ثم ذيله بقوله : لقد شعر جيداً وما أرق قوله (وهجرتنى طبعاً وزدت تكلفاً)
وأورد قصيدة القاضى الجرجاني التى يقول فيها : (٣)
يقولون لي فيك انقباض وإنما .. رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من دانا هم هان عندهم .. ومن أكرمه عزة النفس أكرما
إلى قوله :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم .. ولو عظموه فى القلوب لعظما

(١) انظر الطبقات ٩ / ١٤٨ .

(٢) طبقات ٦ / ٥٨ .

(٣) راجع الطبقات ٣ / ٤٦٠ ، معيد النعم ص ٧٠ .

ولكن أهانوه فهان ودينسوا . . . محياه بالأطماع حتى تجهما
فقال : لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه، وما أعلى على هام الجوزاء موضعه ،
وما أنفعه لو سمعه من سمعه ، وهكذا فليكن وإلا فلا أدب كل فقيه ، ولمثل هذا
النظم يحسن النظم الذى لا نظير له ولا شبهة . . ثم قال :
وأنا أقرأ قوله (لعظما) بفتح العين فإن العلم إذا عظم يعظم ،
وهو في نفسه عظيم، ولهذا أقول : " ولكن أهانوه فهانوا " ولكن الرواية فهان
و (لعظما) بضم العين والأحسن ما أشرت إليه " (١) .
إلى غير ذلك من الأمثلة فلا نطيل، ومن أراد المزيد فدونه الطبقات
المذكورة، يجد فيها ما يشفى غليله .

(١) وانظر كلامه في الطبقات ٩ / ٧ على قول الحافظ أبى طاهر السلفى
في مدح ابن السمعاني :

هو المزنى إبان الفتاوى . . . وفي علم الحديث الترمذى
وحافظ عصره في النشر صدقا . . . وفي وقت التشاعر بحترى
وفي النحو الخليل بلا خلاف . . . وفي حفظ اللغات الأصمعى
قال التاج : وددت لو قال : " وفي الشعر الأديب البحترى " وسلم من
لفظ التشاعر ومن تنكير البحترى .

المبحث الثامن

ابن السبكي الشاعر

يعد التاج السبكي رحمه الله من الشعراء المجيدين الذين تهز
قصائدهم وجدان السامعين ، رغم أنه إنما اشتهر بالفقه والأصول وغالباً
ما يكون شعر الفقهاء أدنى صدوحاً من غيره وأقل خلها للألباب . . . لأن
الفقهاء يعتمدون الحقائق المجردة ، ولا يجنحون إلى الخيال الجامح والمبالغة
الزائدة ، كما يفعل الشعراء الآخرون الذين يقولون :
" أعذب الشعر أكذبه " (١)

لكننا نجد التاج السبكي رحمه الله في شعره وسطاً بين الفريقين ،
حيث يسمو شعره في السبك والصناعة والتصوير إلى مصاف الشعراء المعدودين ،
مع التزامه بالحقيقة وعدم خروجه إلى الإيغال غير المقبول ، فيصدق عليه قول
الأرجاني : (٢)

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع . . في العصر أو أنا أفقه الشعراء
شعري إذا ما قلت دونه الوري . . بالطبع لا بتكلف الإلقاء
وتظهر وسطيته في هذا النموذج من شعره :
قال رحمه الله من قصيدة يرثي بها والده الشيخ الامام . . (٣)

(١) هذه المقولة غير مسلمة بل الصواب عكسها : وهو " أعذب الشعر
أصدق " كما قال الشاعر :

وإن أشعر بيت أنت قائله . . بيت يقال إذا أنشدته صدقا
(٢) راجع الطبقات ٥٥/٦ .

(٣) انظر القصيدة في الطبقات ٣٣٦/١٠ ، وانظر كذلك مرثيته الطنانية
في شيخه الذهبي ١٠٩/٩ .

هي المنية للأرواح تخـترم
وهي السهام نصبنا نحوها غرضا
وهو القضاء من الرحمن يحمد
يا قلب صبرا وإن روعت واحـدة
ويمنع الشمس عن كل الأنام فلا
وكيف لا وعلى مات وهو على
حبر الأنام وشيخ المسلمين ومن
والطيف منها يزور الساهرين بكا
ياسائرين إلى مصر لقد قعدت
وكان فكري لازلت به قـدم
فجاءنا خبر أسمى سامعنا
ما جأني بعده طيف ألد به
يا أيها الموت مهلا في تفرقنا
ها قد ظفرت بفرد لا نظير له
أهكذا الموت يأتي أيما رجل
أهكذا الموت يأتي أيما أسد
أهكذا الموت يأتي أيما جبل
نعم كذا يقبض الله العلوم كما
العلم بالعلماء الله يقبضه
مات الإمام الذي يعلو السماك علا
مات الذي تعرف البطحاء وطأته
مات الذي لم يكن يوما لينكره

وهي الحوادث أمضى أمرها القدم
تصمى بها وتشاك العرب والعجم
حمدا كثيرا عليها الحاذق الفهم
يزيد قلبي نارا سيلها العرم
يرون نورا ولا والله لم ينموا
هدى به هديت من غيبها الأمم
جری بذاك له فيما مضى القلم
أولئك القوم من لذاتهم حرموا
حشو الحشا هذه النيران تضطرم
مخيلا كل يوم أنهم قدموا
وشر ما يسمع الإنسان ما يصم
كلا ولم تحل لما مر لي النعم
فيم التعجل أقصى بيننا أمم
إلا أناس قليل قد أخذتهم
تكاد تحي به في رسمها الرمم
ما إن يغالب والأبطال تزدحم
يدكه أم جبال الدين تنهدم
قال النبي مقالا ليس ينخرم
لا تختلي أبدا منه صدورهم
مات التقى النقى الطاهر العلـم^(١)
والبيت يعرفه والحل والحرم
ركن الحطيم إذا ماجاء يستلم

(١) هذا البيت والذان بعده من شعر الفرزدق راجع الطبقات ٢٩١/١

مات الذى كان فى هذا الزمان لنا
 مات الخدم لرب العالمين ومن
 كلنا يد به غياثهم نفعهم
 سهل الخليفة لا تخشى بـوادره
 يفضى حياء ويفضى من مهابته
 رب المقال فصيح لفظه عجب
 مجرد العزم للعليا ينشده
 ذو همة بلغت نحو السمكاك به
 يا ذاهبا كلما مثلته وقفـت
 وظل قلبى ذا نار تشب لظى
 ورحت حيران لا أدرى الطريق ولا
 سقى السحاب ثرى أمسيت ساكنه
 قد كنت بحر علوم طاب مـورده

كالشمس ينجاب عن إشرقها القتم
 فى عصره كل مخدوم له خـدم
 يُستوكفان ولا يعرفهما العدم
 يزينه اثنان حسن الخلق والكرم
 فلا يكلم إلا حين يبتسـم (١)
 قد ضمن الدر إلا أنه كلـم
 ما أقرب العز إلا أنها قـسم
 تبارك الله ماذا تبلىـم
 بى همة وجرى من ناظرى دم
 وراح خدى بأيدى الدمع يلتطم
 كيف القرار لأمر كله سقـم
 من الرحيم يروى عنده الرحـم
 وكنت حبرا بالأخبار قد ختموا

(١) هذا البيت واللذان قبله من شعر الفرزدق أيضا كما ذكره فى
 الطبقات ٢٩٢/١ وللمصنف أيضا نظم سلسل رائع وانظر قوله فى
 الطبقات ١٣٥/٩ ملفزا

من باتفاق جميع الخلق أفضل من . . شيخ الصحاب أبى بكر ومن عمر
 ومن على ومن عثمان وهو فتى . . من أمة للمصطفى المبعوث من مضر
 إلى آخر القصيدة وهى طويلة ذكر منها فى الطبقات أربعة وعشرين
 بيتا، وقد شرحها السيوطى بكتاب سماه "الأجوبة الزكية عن الألفاظ
 السبكية" والمواد بالأفضل هنا عيسى عليه السلام فإنه أفضل من
 جميع الصحابة رضى الله عنهم لأنه نبي، وأصل هذا اللغز للذهبي
 قال التاج : قال لى شيخنا الذهبي مرة : من فى الأمة أفضل من
 أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالاجماع؟ فقلت يفيدنا الشيخ : فقال
 عيسى بن مريم عليه السلام فإنه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ينزل
 آخر الزمان ويحكم بهذه الشريعة، وانظر أيضا قصيدته النونية التى
 نظمها فى مسائل العقائد ، ٣٧٩/٣ وما بعدها .

إلى آخر القصيدة : وهي ملحمة رائعة كما ترى نكتفى بهذا القدر منها .

وانظر كيف يدخل ضمنها بعض أبيات الشاعر الفرزدق التي يمدح فيها على بن الحسين رضي الله عنه فلا تكاد تميزها بين أبياته بل ترى القصيدة وكأنها من مشكاة واحدة .

المبحث التاسع

ابن السبكي المصلح الاجتماعي

يقع التاج السبكي رحمه الله في الصفوف الأولى بين المصلحين الاجتماعيين، فهو رجل دولة وقضاء وسياسة وعلم وحلم وكياسة، وصفح وصبر، وخلق قويم.

خبر مجتمعات عصره وتغلغل في أحشائها وتقلب في طبقاتها صعودا وانحدارا، فنصح وأرشد، وعلم وخطب، وأصلح وحكم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأثر في طبقات الناس على مختلف المستويات في عصره فأكرمه جمهورهم وناصروه، واستمعوا إليه وأطاعوه، والتفوا حوله وآزره، وناوآه بعضهم، فوقفوا في طريقه وناصروه العداء، كشأن المصلحين في كل المجتمعات " فلا بد من مشن عليك وقالى " (١).

وغالبا ما كان شائئوه من ذوى السلطة والنفوذ، والمصالح والأهواء، الذين كانت تلهبهم سياطه الإصلاحية وتقض مضاجعهم سيرته الجهادية، المؤثرة ولقد كان رحمه الله يمتاز بسعة في الأفق، وقوة في الإرادة، وجرأة في الحق، وصرامة في دين الله، لا ترهبه سطوة ظالم ولا يخشى في الله لومة لائم، وكان خبيرا بأدواء عصره ومشاكله، فنجدته يتعرض لكثير من الأمور السائدة في زمانه والتي قد تخفى على الكثير فينقدها نقدا مرا لا ذعا، بأسلوب بليغ وعبارات قوية، تكشف لنا عن غيرته العلمية الجادة ونظرته الإصلاحية الشاملة وتدل على

(١) هذا من شعر الحافظ المنذرى رحمه الله حيث يقول :

إعمل لنفسك صالحا تحتفل . . بظهور قيل في الأنام وقال
فالخلق لا يرجى اجتماع قلوبهم . . لا بد من مشن عليك وقالى
انظر الطبقات ٢٦١/٨ .

أصالة في التفكير، وعمق في الرأي، وغزارة في العلم ، وإدراك شامل لأحداث مجتمعه .

وسنعرض هنا لبعض القضايا التي تناولها بالنقد والاصلاح فى كتابه (معيد النعم) (١) وهو الكتاب الذى يعد نقطة تحول فى حياة التاج السبكي من عالم ومدرس وقاض إلى ناقد مصلح، من طراز فريد ، وقد أخرجـه للناس فى أواخر حياته رحمه الله ، وتعرض فيه لطبقات الأمة على كافة المستويات ابتداءً بالسلطان فى قمة حكمه وانتهاءً بالفلاح فى قاع حقله . وإليك بعض هذه المواقف

(١) اسمه (معيد النعم ومبيد النقم) وهو كتاب فريد، فيما تضمنه من الفوائد والنصائح والعلوم تبدى منه راحة عقل مؤلفه وسعة فكره - وشجاعته وجراته فى الصدع بالحق، ونقده المر المكشوف لرجـال الدولة على اختلاف مراتبهم، فى زمن كانت الحكومة فيه لا تتحرج من التنكيل بالناس، لكنها النفوس الكبيرة لا تبالي بالأخطار والمصاعب. وإذا كانت النفوس كبارا . . . تعبت فى مرادها الأجسام

أولا : موقفه مع السلطان :

ويتمثل هذا الموقف في حث السلطان على إقامة فرض الجهاد والعدل بين الناس وحماية بيت مال المسلمين ، وعدم التفريط في أى من هذه الأمور ، كمايلي :

(١) إقامة فرض الجهاد :

قال رحمه الله " إن الله تعالى لم يول السلطان على المسلمين ليكون رئيسا عليهم آكلا شارباً مستريحا ، بل لينصر دين الله ويعلى الكلمة ويقم فرض الجهاد . فلا يدع الكفار يكفرون أنعم الله ولا يؤمنون بالله ولا رسوله ، فإن تقاعد عن هذا الأمر وأخذ يظلم المسلمين ويأكل أموالهم بالباطل فاعلم أنه إلى زوال ، وأن عاقبته الخسران ، فإن كان هذا الملك شجاعا ناهضا فليرنا همته في أعداء الله الكفار ، ويدع عنه أذية المسلمين " (١) .

(٢) العدل بين الناس :

عن هذا المعنى يقول " إذا ولاك الله تعالى أمرا على الخلق ، فعليك البحث عن الرعية ، والعدل بينهم في القضية والحكم فيهم بالسوية ، ومجانبة الهوى والميل ، وعدم سماع بعضهم في بعض ، إلا أن يأتي بحجة مبينة ، وعدم التكون إلى الأسبق ، والميل إلى تصديقه ، فإن ذلك ظلم للخلق " ، ثم ينكر ميل الحكام إلى أول شاك من الناس ولو بغير حجة ظاهرة فيقول رحمه الله : " وقد اعتبرت كثيرا من الأتراك فوجدتهم يميلون إلى أول شاك وما ذاك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم التي صيرت قلوبهم كالأرض الترابية التي لم ترو بالماء فإذا أتاها ماء رويت سوا كان ذلك الماء صافيا أم كدرا ، ثم إذا رويت وجاء ماء آخر صاف حسن لم تشربه ، وصار مائعا عليها ، فهذه هي القلوب

(١) انظر معيد النعم ص ١٢ .

الغافلة عن الحق . . (١)

فانظر إلى هذا التشبيه البليغ ما أروع ، وكأنى بأولئك الحكام يأنسون فى أول شاك إليهم حبه لهم ، ورغبته فيهم أكثر من اللاحق ، ولولا ذلك لما بادروا إليهم قبل خصمه ، فيكافؤنه بالميل إليه ، أو أنهم لغرط جهلهم يظنون أن سبقه بالشكاية يدل على أنه مظلوم لا محالة .

(٣) حماية بيت المال :

يذكر التاج رحمه الله أن من وظائف السلطان المهمة حماية بيت مال المسلمين والحدب عليه ، والسير فيه على سنن الشرع ، وتصريف أمواله فى المصارف المستحقة فيقول : " إن على السلطان الفكرة فى العلماء والفقراء ، وسائر المستحقين وتنزيلهم منازلهم وكفايتهم من بيت المال الذى هو فى يده أمانة عنده ، ليس هو فيه إلا كواحد منهم ، ولدلوه نسبة دلاء المسلمين . فإن تعدى ذلك وصرفه فى شهواته ولذاته وأخذ يفتدق الأموال على خواصه ومن يريد استمالة قلوبهم إليه لبقاء ملكه ، وأعجبه مدائح الشعراء لكرمه فذلك خرق لابلومن معه إلا نفسه فإنه وبال على صاحبه .

ثم أورد حكاية عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه تبين مدى حفاظه على بيت مال المسلمين ، فقال : " وقد كان بيت مال المسلمين فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يحصى كثرة وجاءه مع ذلك أعرابى يستمنحه فقال منشدا :

يا عمر الخير جزيت الجنة . . أكسى بنياتى وأمهنه

وكن لنا من الزمان جنة . . أقسم بالله لتفعلنه

فلم يرعه ترققه ولا قسمه عليه بل قال له فإن لم أفعل يكون ماذا ؟ قال : " إذا

أبا حفص لأذهبنه" فقال له وإذا ذهبت يكون ماذا؟ فقال :

يكون عن حالى لتسألنه . . . يوم تكون الاعطيات هنة

وموقف المسئول بينهنه . . . إما إلى نار وإما جنّة

فلما ذكر له الجنة والنار والموقف بين يدي الجبار بكى رضى الله عنه حتى
اخضلت لحيته بدموعه ، وقال يا غلام اعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره ،
أما والله لا أملك غيره . .

قال التاج : فانظره مع ما حصل عنده من الرقة لدينية ، لم يُنعم إلا

بما هو من خاصة ماله ، ولم يجد غير قميصه ، وقد كانت خزائن الأموال مملوءة
بين يديه .

قال العلماء ولم يعطه من بيت المال وإن كان الأعرابى فقيرا مستحقا ،

لأنه لما استنزله بشعره لم يكن العطاء لمصلحة المسلمين ، فلم يعطه من مالهم ،
أو أنه لم يثبت عنده أن الأعرابى من جملة مصارف الصدقات ، فهذه سيرة أهل
الحق والدين .

ثم قال ولسنا نطالب أهل زماننا بها فإنهم لا يصلون إلى هذا المقام ،

ولكن نذكرهم لعلهم يرجعون ، أو يقصرون عما هم فيه ، فلا بد فى الذكرى من نفع
إن نشاء الله . . (١) .

ثانيا : موقفه مع نواب السلطنة :

هو "لا" كانوا هم حلقة الوصل بين الناس والسلطان، فعن طريقهم تقضى مصالح الأمة، وهم الحكام الفعليون فى أمور الدولة والرعية ولهم القدرة على نصيحة السلطان وكف ظلمه عن الناس، لذلك كان عليهم من المهام ما على السلطان وزيادة .

وقد كان كثير منهم فى زمن التاج يخرج عن أحكام الشرع وسننه ، وآدابه ويحكم رأيه فى كثير من أمور الناس، لذلك نرى هذه الطائفة تختص بكثير من اهتمامه ونصائحه فى أمور شتى منها . :

(١) القاء مقاليد الأحكام إلى الشرع :

يقول رحمه الله "، إن عليهم إلقاء مقاليد الأحكام إلى الشرع لأنه لا حاكم إلا الله تعالى، ولن تفعل العقول شيئا (١) ولن تنفع السياسة فى شيء بل تضر البلاد والعباد وتوجب الهرج والمرج " .

ثم يؤكد على أن شريعة الله متكفلة بجميع مصالح الخلق فى معاشهم ومعادهم وأنه لا يأتى الفساد إلا من الخروج عنها ، فحق على كل مسلم الرضا بحكم الله والانقياد له ، ويدلل على هذا المعنى بقوله تعالى : " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا

(١) قال التاج رحمه الله : (وقد اعتبرت ولا ينبئك مثل خبير، فلم أر ولم أجد من يظن أنه يصلح الدنيا بعقله ويدبر البلاد برأيه وسياسته ، ويتعدى حدود الله وزواجره إلا وكانت عاقبته وخيمة وأيامه منغصة متكدرة وعيشه قلقا مضطربا، وتفتح عليه أبواب الشرور من كل مكان ، ويتسع الخرق على الرقع، فلا يسد ثلثة إلا وتفتح عليه ثلثات ولا يرفع فتنة إلا وينشأ بعدها فتن كثيرة وعلى مثله يصدق قول الشاعر :

نرفع دنيانا بتمزيق ديننا . . فلا ديننا يبقى ولا مانرقع

مما قضيت ويسلموا تسليما" (١) فيقول : " أخبر سبحانه أننا إن لم نحكم هذا النبي العظيم ثم إذا حكم لم نجد في أنفسنا حرجا وضيقا وقلقا من حكمه ، بل نطمئن له ونسلم وننقاد ونذعن وإلا فنحن غير مؤمنين " .

ثم أضاف يقول : " فإن قال حمار من هؤلاء أنا من أين أعرف هذا وأنا عامي تركي لا أعرف كتابا ولا سنة ؟ قلنا له هذا لا ينفعك عند الله تعالى شيئا ، ألم يجعل لك عينين ولسانا وشفقتين ، وهداك النجدين ، إذا كنت لاتعرف فاسأل أهل الذكر فإن هذا شأن من لا يعلم ، وإن عجزت عن الفهم فمالك وللدخول في هذه الوظائف دعها وكن كما قيل :

إذا لم تستطع شيئا فدعه . . وجاوزه إلى ماتستطيع (٢)

(٢) قمع أهل البدع والأهواء :

يذكر التاج : أن من واجبات نواب السلطنة دفع أهل البدع والأهواء وكف شرهم عن الخلق ، وأنه لا يسعهم في دين الله تعالى الصبر على من يسب الصحابة رضوان الله عليهم ويفسد عقائد أهل الإسلام .
ويؤكد بأن عليهم الغلظة على هؤلاء بحسب ماتقتضيه مصلحة الشرع (٣) .

(٣) شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم مرتد كافر لاتقبل توبته :

يقرر التاج رحمه الله أنه لاتوبة لمن ينتقص من جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يسبه فإن ذلك مرتد كافر يجب سفك دمه . قال : " فعلى نائب السلطان القيام بهذا الأمر وقد ذهب إليه كثير من العلماء وهو اختيار

(١) سورة النساء آية ٦٥ .

(٢) انظره ص ٤٢ .

(٣) انظره ص ٢٢ .

طوائف من المتأخرين، فإن كان الذى وقع منه هذا معروفا بسوء العقيدة
أو وقع منه ما وقع على وجه فظيع ، تشهد القرائن فيه بالخبط الباطن، فأرى
أن لا تقبل توبته ويسفك دمه فوراً .

قال : وهو رأى الشيخ تقي الدين ابن تيمية والشيخ الامام الوالد
رحمهما الله تعالى . . (١)

فالتا : موقفه مع نظراء الجيش :

يذكر التاج أنَّ ناظر الجيش عليه أن ينظر في حالهم وأن يجرد من يرى فيه المصلحة والكفاية والقدرة من الجند .
ولا يجوز له أن يجهز عاجزا لفقر أو غيره ، بل عليه الدفع عنه بما يمكنه فإنه ناظر عليه كناظر اليتيم (١)

(١) الفلاح حر لا يد لآدمى عليه :

يقرر التاج رحمه الله أن الفلاح أمير نفسه فيما يختاره فسي أرضه ومعيشته ، ويشدد النكير على من يلزمه بالفلاحة قسرا ، ويرى أن ذلك لا يجوز فعله ، وأن البلاد تعمر بدون ذلك ، فيقول : " ومن قبيح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين في الاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لآدمى عليه " .
قال " وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يمسك ويعاد إلى القرية قهرا ، ويلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام أشد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده لأن فيه تضيقا على الناس لاضرورة إليه " (٢)

(٢) الديوان لا شرع له :

يقول التاج رحمه الله : " ومن قبائح هؤلاء النظراء أنهم إذا اعتمدوا

(١) ثم يقرر أن على ضباط الجيش وأمراء الأجناد تفقد حال الأجناد وتعليمهم الرمي ، والمسابقة على الخيل ، بحيث يعرفون الطعان والضرب والحرب ، وللامير أن يحثهم على المناضلة والكر والشد ، وكل ما يلزم للقتال ويبني الأجسام ، وعلى الأمير إذا سار بالجيش الرفق بهم وتفقد خيولهم وتقوية قلوبهم و السير على سير أضعفهم وأن يعطى الجند يسلب الكافر الذي يقتله ولا يمنع منه ، فإن الجند يقاتل ويخاطر بنفسه فإذا عرف أنه لا ينصف فترت عزيمته وخارت قواه " راجع ذلك ص ٧٤ .

(٢) انظره ص ٣٤ .

شيئا مما جرت به عوائدهم القبيحة يقولون هذا شرع الديوان والديوان لا شرع له ، بل الشرع لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذا الكـلام ينتهى إلى الكفر .

وإن لم تنشرح النفس لتكفير قائله فلا أقل من ضربه بالسياط ليكف لسانه عن هذا التعظيم الذى هو فى غنية عنه ، بأن يقول مثلاً عادة الديوان كذا أو طريقته كذا أو نحو ذلك من الألفاظ التى لا تنكر (١) .

رابعاً : موقفه مع من يتولون أمر أهل الجرائم :

هذه الطائفة هي التي عليها محاسبة الجناة ومراقبة أحوال الناس ولكن ضمن إطار الشرع وقد كانت تخرج عن هذا الإطار في أمور منها :

(١) التجسس على الناس :

يذكر التاج رحمه الله أن من حق من يوكل إليه أمر أهل الجرائم الفحص عن المنكرات وسد الذريعة فيه، والستر على من ستره الله تعالى من أرباب المعاصي، وإقالة ذوى الهيئات عثراتهم ، ثم يقول : " وليس له أن يتجسس على الناس ويبحث عما هم فيه من منكر، ولا أن يكبس عليهم بيوتهم بمجرد القيل والقال ، إلى قوله : " وما يفعله الولاة اليوم من إخراج القوم من بيوتهم وإزعاجهم وإزعاجهم وهتيكتهم ، كل ذلك من تعدى حدود الله تعالى : " ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه " (١) .

ثم قال " ومن الولاة من يتجاوز في الضرب العقادير ويتنوع في إيصال الألام لمن يعاقبه بمجرد التهمة والظن ، أفما علم هذا الفاجر أن ضرب برى أصعب عند الله تعالى من تخلية ذى جريمة " ؟ إلى آخر كلامه في هذا المعنى . (٢)

(٢) من زنا بامرأة زوجها ، إياها :

قال التاج رحمه الله : " ومن أحكام الولاة الفاسدة أنه إذا رفع إليهم من أزال بكاره امرأة أمره بزواجها ، وكذلك إذا أحبلها ، ظنا منهم أن ذلك خير من هتيكة الزنا وضياع الولد بلا نسب ، وهذا خلاف دين الله تعالى ، فإن ولد الزنا لا يلحق بالزاني ، ولا يكون ابناً له ولا يرثه فيفعلون حراماً يستمر أبداً الأباد وهو جعل ولد الزنا ابناً يرث الزاني إلى غير ذلك من أحكام الأبناء " (٣)

(١) سورة الطلاق الآية رقم (١)

(٢) انظره ص ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

خامسا : موقفه مع القضاة :

كان كثير من القضاة في زمن السلاجقة لا يتورعون عن قبول الهدايا والسعي في طلب القضاء بأى ثمن ، فوقف من هؤلاء موقفنا حازما وشدد النكير عليهم جدا فقال رحمه الله عند ذكره لأخبار هذه الطائفة :

" ومن أقبح ما يرتكبه القضاة قبولهم للهدايا فيحرم على القاضي قبول هدية من يهدي له ليستميل خاطره لقضاء أربه ، وهذا يشمل كل من قد يحتاج إلى القاضي ممن هو فوقه أو مثله أو دونه . "

وقال عن يدعى منهم الإكراه على القضاء : " ومن هؤلاء من يقول : أكرهت على القضاء وأنا لم أر إلى الآن من أكره على القضاء الإكراه الحقيقى ، وقد ضرب جماعة من السلف على أن يلوا القضاء فأبوا ، وما ذاك إلا لأنهم يخشون ألا يقيموا فيه الحق لفساد الزمان ، وإلا فالقضاء إذا أمكن فيه نصر الحق من أعظم القربات ، ولكن أين نصر الحق ؟ وهم لا يدخلون فيه ، إلا بالسعى ورزما بذلوا عليه الذهب (١) .

إلى أن يقول : وكأنى بأحق من الفقهاء يقول تعين علي طلب القضاء وأنا لا يخفى علي ما قاله الفقهاء فيمن يتعين عليه ذلك ، ولكن من ذا الذى يتعين عليه ؟ فقائل هذا الكلام إما ممن لبست عليه نفسه واستتره الشيطان من حيث لا يدري ، أو ممن يريد التلبيس على الناس ، فهو إبليس من الأبالسة نعوذ بالله منه .

وما فعلت هذه الطائفة ولا كان ثمره علمها إلا أن جعلت العلم حطام الدنيا ثم أخذت تداجى في دين الله تعالى وتلبس على الخلق وتأكل الدنيا بالدين فقبحها الله من طائفة . . . "

(١) انظره ص ٥ - ٦٩ وقد أشد بعضهم فى أحد هؤلاء الذين يتولون المناصب بالأموال فقال :

فلان لا تحزن إذا نكبت واعرف ما السبب
فما تولى حاكم بفضة إلا ذهب
انظر ذلك ص ٧٣ .

سادسا : موقفه من طوائف العلماء :

العلماء فرق كثيرة منهم المفسر والمحدث والفقيه والأصولي والمتكلم ،
والنحوي وغيرهم ويستوون في أن عليهم إرشاد المتعلمين وإفتاء المستفتين
ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين .
وَأَلَّا يَقْصِدُوا بِالْعِلْمِ الرِّيَاءَ وَالسَّمْعَةَ وَالْمَبَاهَاةَ ، وَلَا جَعَلَهُ سَبِيلًا إِلَى
الدُّنْيَا فَإِنَّ الدُّنْيَا أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ .

قال التاج رحمه الله : " وحق الحق إني لأعجب من عالم يجعل
علمه سبيلا إلى حطام الدنيا وهو يرى كثيرا من الجاهل وصلوا من الدنيا إلى
ملا ينتهى هو إليه . فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهل فما بالناس تشتريها
بأنفس الأشياء وهو العلم ؟ ، فينبغى أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى والترقى
إلى جوار الملا الأعلى .

ثم قال : والكلام فى العلماء وما ينبغى لهم يطول ولكننا ننبه على

مهمات :

(١) تردد بعض العلماء إلى أبواب السلاطين :

قال التاج رحمه الله : من العلماء من يطلب العلو فى الدنيا
والتردد إلى أبواب السلاطين والأمراء وحب المناصب والجاه فيؤدى ذلك إلى
أن قلبه يصدأ ويظلم بهذه الأكدار ويبعد عن علام الغيوب ، وإلى أنه يشتغل
بهم وبها عن الزدياد فى العلم ، فكم رأينا فقيها تردد إلى أبواب الملوك
فذهب فقهه ونسى ما كان يعلمه " (١)

(١) كما يؤدى ذلك إلى فساد عقيدة الأمراء فى العلماء فإنهم يستحقرون
المتردد إليهم ، قال التاج : " ولا يزالون يعظمون الفقيه حتى يسألهم
فى حوائجه . ويؤدى ذلك إلى أنهم يظنون فى أهل العلم السوء
ولا يطيعونهم فيما يفتون به وينقصون العلم وأهله وذلك فساد عظيم
وفيه هلاك للعالم . . " أنظر ذلك ص ٦٨ - ٧٤ .

(٢) تعصب العلماء في الفروع :

قال رحمه الله : ومن العلماء من تأخذه في الفروع الحمية لبعض المذاهب ، فيركب الصعب والذل في العصبية لها . . ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب بحيث يمنع بعضهم من الصلاة خلف بعض إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره ، ويأويح هو^١ لا^٢ أين هم من الله تعالى ، ولو أن الأئمة الأربعة أحياء^٣ يبرزون لشددوا عليهم النكير وتبرؤا منهم فيما يفعلون " .

(٣) التلقيق بين المذاهب :

قال التاج رحمه الله وهو يتحدث عن المفتين ويعيب على طائفة منهم تتبع الرخص في المذاهب لافتاء الأمراء . . قال : " إن منهم من يسهل أمر الشرع ويرخص لبعض الأمراء ما لم يرخص فيه لعموم الخلق ، ويفتي ببعض ما لا يعتقده من المذاهب (١) .

فيقول مثلا : لمن سأله عن انتقاض الوضوء بمس الذكر لا ينتقض عند أبي حنيفة ، وعن لعب الشطرنج وأكل لحوم الخيل حلال عند الشافعي ، وعن مجاوزة الحد في التعزير جائز عند مالك ، وعن بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته ولم يكن له ما يعمر به حلال عند أحمد بن حنبل ، وهكذا . .

(١) وهناك طائفة تصلبت في أمر دينها ، قال التاج : " فجزاها الله

تعالى خيرا تنكر المنكر وتشدد فيه وتأخذ بالأغلظ وتتوقى مظان التهم غير أنها تبالغ فلا تذكر لضعفة الإيمان من الأمراء والعوام إلا أغلظ المذاهب فيؤدى ذلك إلى عدم انقيادهم وسرعة نفورهم .

قال : فمن حق هذه الطائفة الملاطفة وتسهيل ما في تسهيله فائدة لمثل هو^١ لا^٢ إلى الخير إذا كان الشرع قد جعل لتسهيله طريقا ، كما أن من حقها التشديد فيما ترى أن في تسهيله ما يؤدى إلى ارتكاب شئ من محرمات الله تعالى " ، راجع معيد النعم ص ١٠٢ وما بعدها .

فيا ليت شعري بأي مذهب أفتى هذا المفتي ؟ وعلى أي طريقة جرى ؟ فلقد ركب لنفسه بمجموع هذه الأمور مذهباً لم يقله أحد .

وهذا من علامات الاستهانة بدين الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان ، وما هذا المفتي إلا ضال خارق لحجاب الهيبة ، مفسد لنظام الدين ، نسأل الله السلامة .

هذا غيض من فيض مما احتواه كتابه القيم (معيد النعم) نكتفي بهذا القدر الذي أوردناه منه ومن أراد المزيد فليرجع إليه يجد فيه بغيته .

الفصل الخامس :

فى الاعمال العلمىة والمناصب التى شغلها فى حىاته

وىتضمن مبحثىن

المبحث الأول : فى الافتاء والتدرىس

المبحث الثانى : فى تولىه منصب القضاة والخطابة

المبحث الأول

فى الافتاء والتدريس

لقد ظهر النبوغ العلمى للتاج السبكى مبكراً فكان وهو فى ريعان شبابه آية خارقة فى الحفظ والاتقان والدراية وسعة العلم وفصاحة اللسان . قال ابن حجر : " أمعن فى طلب الحديث وكتب الأجزاء والطباق ، ولازم الاشتغال بالفقه والأصول ، والعربية حتى مهر وهو شاب ، وأذن له ابن النقيب بالافتاء والتدريس وهو لم يكمل العشرين " (١) .

ونظراً لنبوغه المبكر فقد كان مشايخه ينزلونه للتدريس فى مدارسهم الشهيرة ، وكان والده كثيراً ما يصرفه عن ذلك لصغر سنه ووجود مشايخ كبار بجانبه ، ذكر فى الطبقات : أن شيخه الذهبى نزل له فى حياته عن مشيخة دار الحديث الظاهرية فلم يمض والده الشيخ الإمام ذلك النزول ، وقال له " والله يا بنى أعرف أنك مستحقها ولكن ثم مشايخ هم أولى منك ، لطعنهم فى السن " .

قال التاج : ثم لما حضرت الوفاة شيخنا الذهبى أشهد على نفسه بأنه نزل لى عنها فوالله لم يمضها لى الوالد ، وها خطه عندي يقول فيه بعد أن ذكر وفاة الذهبى ، وقد نزل لولدى عبد الوهاب عن مشيخة الظاهرية وأنا أعرف استحقاقه ولكن سن الشباب تمنعنى أن أمضى النزول له " ثم قال عن والده " ولما نزل لى عن مشيخة دار الحديث الأشرفية كان يقول : ما أعلم أحد يصلح لمشيخة دار الحديث غير ولدى عبد الوهاب وشخص آخر غائب عن دمشق وأكثر الناس لم يفهم الغائب وأنا أعرف أنه الشيخ صلاح الدين العلائى

(١) انظر الدرر الكامنة ٤٢٦/٢ ، لأن عمره لما مات شيخه ابن النقيب

كان حوالى ثمانية عشر عاماً إذ مات شيخه المذكور (٧٤٥) انظر

الطبقات ٣٠٧/٩ .

شيخ بيت المقدس وحافظه (١) ، وقد زاول أعمال التدريس والافتاء بكثرة فى دمشق التى قضى فيها معظم حياته وفيها انصقلت مواهبه العلمية وبهرزت شخصيته الفذة فى شتى الفنون، حتى غدا إماماً مرموقاً وحبراً لا يجارى وظل مفتى الشام بعد وفاة والده سنة ٧٥٦ هـ إلى أن توفى سنة ٧٧١ هـ ثم فى مصر أثناء تواجده فيها عام ٧٦٣ هـ بعد أن عزل عن قضاء دمشق فى المرة الثانية واستمر فيها قرابة سنة كاملة على أعمال أخيه بهاء الدين، فتولى فيها إفتاء دار العدل وتدريس الشافعى والشيخونية، والميعاد بالجامع الطولونى وغير ذلك (٢) .

وأما فى دمشق فقد تولى التدريس فى كبريات مدارسها كالعزيزية والناصرية والعدراوية والغزالية والأمينية والشاميتين والعدالية الكبرى ومشيخة دار الحديث الأشرفية وغير ذلك (٣)

قال فى الأشباه والنظائر : " وأما دمشق فما فيها مدرسة مرموقة بعين التعظيم إلا وقد وليت تدريسها بحمد الله إلا اليسير من المدارس " (٤) .

-
- (١) راجع الطبقات ٢٠٩/١٠ وما بعدها .
 - (٢) انظر الدارس فى تاريخ المدارس ٣٧/١ .
 - (٣) راجع الشجر البسام ص ١٠٣ البدر الطالع ١/٤١٠ ، البداية والنهاية ٢٦٤/١٤ النجوم الزاهرة ١٠٨/١١ ، شذرات الذهب ٦/١٨٠ .
 - (٤) انظر الكتاب المذكور ورقة ٢١٧ .

المبحث الثانى

توليه منصب القضاء والخطابة

تولى تاج الدين قضاء القضاة فى الشام بطلب من والده فى أواخر أيامه سنة ٧٥٦ هـ .

قال التاج : " وكان الوالد يقول لى أيام مرضه قبل أن يحصل لى القضاء . . إياك ثم إياك أن تطلب القضاء بقلبك فضلا عن قاليك ، فأنا أطلبه لك لعلمى بالمصلحة فى ولايتك ، لك ولقومك وللناس ، وأما أنت فاحذر لئلا يكلك الله إليه " .

وقد تولى رحمه الله إلى جانب القضاء الخطابة بالجامع الأموى بدمشق فاستمر فى عز ورفعة بيده القضاء والخطابة وما أضيف إليهما واتفق له من العظمة فى ولاية القضاء ما لم يتفق لقاض قبله ونال المزيد من السعد مع حسن الشهرة ونفاذ الكلمة وطيب الذكر والورع البالغ .

قال ابن حجر : " وانتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام . . " (١) وكان قد باشر القضاء بهمة وصرامة وعفة لا يلين لغير الحق ، ولا يكثرث بالموتورات ، لذلك لاقى من جرائمه المحن والشدائد ، فصمد وقاوم وكان فى غاية الثبات ، واستمر فى منصب القضاء إلى أن مات سنة ٧٧١ هـ مع استثناء الفترات التى عزل فيها وهى ثلاث فمدة ولايته قضاء الشام تقرب من خمسة عشر عاما ، قضاهما كلها فى إقامة العدل والثبات على الحق والازدياد من العلم والتأليف وفيها بدت شخصيته واستقلاله برأيه ، واعتداده بنفسه فتراه مثلاً يقول فى ورقة كتبها إلى نائب الشام " وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق لا يقدر أحد يرد على هذه الكلمة . . " قال السيوطى وهو مقبول فيما قاله عن نفسه (٢) .

(١) الدرر الكامنة ٤٢٦/٢ .

(٢) انظر حسن المحاضرة ٣٢٨/١ .

الفصل السادس :

فى موقفه من خصومه

والكلام على عزله عن القضاء وسجنه

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول : فى محنته الأولى

المبحث الثانى : فى محنته الثانية

المبحث الثالث : فى محنته الأخيرة

تمهيد

الناس العظماء ذوو الهمم العالية والامجاد السامقة لا يتركهم الزمان
يمخرون عبا به بسلام، ويشقون طريقهم معه في صفا، ووثام، بل يقف لهم
بالمرصاد ويصد هم بكل عنف وعناد .

ليس الزمان وإن حرصت مسالما . . طبع الزمان عداوة الأحرار

نعم هذه طباع الأيام، وهذا ديدنها في الناس، فمن طلب زمانا
صافيا عن الأقداء والاكدار فقد حاول مايند عن الامكان .

ومن رام في الدنيا حياة خلية . . من الهم والأكدار رام محالا (١)

وتختلف عوائق الزمان ومحنه من شخص إلى آخر فكلما كان الانسان
أمثل وأكمل كان نصيبه من المحن والرزايا أكثر وأوفر " أشد الناس بلاء الانبياء
ثم الأمثل فالأمثل " (٢) .

وقد كان التاج السبكي رحمه الله من هؤلاء الكلمة الأماثل فيمما
أحسب فلا عجب أن ينال من سهام الدهر ماتتو بحمله الجبال
وإذا كانت النفوس كبارا . . تعبت في مرادها الأجسام

وقد تعب التاج رحمه الله كثيرا وعانى من دهره الشدائد، وهذا
ابن كثير رحمه الله يصور لنا مقدار معاناته وتعبه فيقول: " لقد جرى عليه من
المحن والشدائد مالم يجر على قاض قبله وحصل له من المناصب والرئاسة مالم
يحصل لأحد قبله وانتهت إليه الرئاسة بالشام " (٣) .

-
- (١) وإذا رجوت المستحيل فإنما . . تبني الرجا على شفير هار
ومكلف الأيام ضد طباعها . . متطلب في الماء جذوة نار
(٢) رواه البخارى بلفظ: " أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأول فالأول " ٣/٤
(٣) ذكره عنه ابن حجر في الدرر ٣٢٨/٢ ولم أجده في المطبوع من ابن
كثير إذ تقف حوادثه على سنة ٧٦٧ هـ .

وقد كان فضل الله عليه وما حباه به من مجد وسناء مبعث ملاقاه من
 المحن والأنكاد ، فى حياته رحمه الله ، فقد حسده معاصروه على هذه
 المنزلة الرفيعة وتربصوا به الدوائر فتألبوا عليه واجتمعوا على مشاقتـه
 ومناوأتـه بكل ما استطاعوه وما لم يستطيعوه :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه . . فالكل أعداء له وخصوم

فكان هو^١ لا النظراء ينفسون عليه نجابته وعلو قدره وارتفاع شأنه وكان
 منهم من يطمح إلى مناصبه ويغمطه عليها ، ويبغى له الغوائل^٢ على أنه أن
 يخلفه فيها وينعم بخيراتها ويستولى على ما حازه من غنائم المعالي ورفيع
 الدرجات .

لذلك انعطفوا نحوه وبثوا حوله الأراجيف وكانت له معهم صولات
 وجولات ، أدت إلى عزله عن قضاء الشام مرات عديدة وأصيب من جراء القضاء
 بمحن متتالية نجملها فى الآتى :

المبحث الأول

فى محتفه الأولى

قال ابن كثير: "ورد البريد بطلبه فى شعبان سنة ٧٦٣ هـ فأرسل إليه حاجب الحجاب أن يسافر من يومه، فاستنظرهم إلى الغد، فأُمهل، وقد ورد الخبر بولاية أخيه الشيخ بهاء الدين السبكي قضاء الشام، عوضا عنه، وجاء الناس ليودعوه، ويستوحشون له، فتوجه على البريد إلى الديار المصرية، وبين يديه جمع غفير من قضاة الشام والأعيان يمشون فى ركابه، حتى ردهم بعد أن جاوزوا البنيان^(١) وقد نظم سبب هذا العزل زمرة كبيرة من أعدائه الألداء^(٢).

واستمع إليه يتحدث عنهم بعد أن انتصر عليهم بأسلوب قوى لا ذع مكافئ، لما كانوا عليه من الحدة واللدادة، فيقول فى رسالة بعث بها إلى صديقه الصلاح الصفدى: "أما زمر الأعداء فكل منهم عبس وتولى، وتبين لولى الأمر أن لمثله يقال نوله ماتولى، فهو لا قوم أشربوا فى قلوبهم المنصب، فقطع أمعاءهم، وأعجبوا بالسنة حداد فضلعت أعضاءهم، لم يرجعوا حتى وقف الهوى، وقوبل كل آفاك

(١) انظر البداية والنهاية ٢٥٣/١٤، الطبقات ١٠/١٦ وما بعدها.

(٢) من هؤلاء الأعداء كما يقول ابن حجر قريبه أبو البقاء السبكي المولود

سنة ٧٠٧ هـ والمتوفى (٧٧٧ هـ) ومنهم أيضا عمر بن سعد الكناسى المتوفى ٧٩٢ هـ قال ابن حجر إن التاج السبكي هو الذى أدخله بين الفقهاء فلما امتحن التاج كان هو أشد من قام عليه، ومنهم كذلك القاضى محمد بن عبد الرحيم المالكي المتوفى (٧٧١ هـ) قال ابن حجر: تولى قضاء دمشق لأكثر من عشرين سنة وكان قد صاهر تقي الدين السبكي ثم كان أحدهم قام على ولده التاج عبد الوهاب فبالغ وأفرط. انظر الدرر ٣/٤٢، ٤٩٠/٤، ١١/٤ وذكر ابن حجر أيضا فى تاريخه ١٦٢/١ فى ترجمة الشيخ أحمد بن محمد الرهاوى الدمشقى أنه لما ولى البلقينى سنة ٧٦٩ هـ وأزره وتصدى لمخاصمة تاج الدين السبكي أدى ذلك إلى انحراف كثير من الناس عنه وتحاملوا عليه وكسوا بيته، وأخرجوا منه خمرا قليل إنه كان لبعض غلمانته قال أمره إلى الخمول حتى مات سنة ٧٧٧ هـ.

منهم بما نوى ، لقد لعب بهم شيطان الحسد ، وشد وثاقهم بحبل من مسد ،
ثم أنشد يقول :

ولقد عدلت حلیمهم ونهیته . . . فأبى وقال هواك أمر محکم
فأردت أطنب قال لى متبرما . . . أطنب أو اوجز حبل كيدى مبرم
أجد الملامة فى هواك لذیذة . . . حسداً وبغیا فلیلمنى اللوم

قال : فلما سمعت قوله " أجد الملامة فى هواك لذیذة " عرفت أن
العدل لا يرجعه (١) ، وأنه يحاول سقوط من كان فوق محل الشمس موضعه ،
فعدلت عن عدله ، واكتفيت بالحكم العدل وعدله ، وجئت فشاهدت من الأمير
والسلطان ، ما رغم به أنف الشيطان ، وصرت المسئول فيما حسبوا أنى أحاوله
استقراراً والمتضرع إليه فى العود مراراً وحفتني من الله الطافه ونعمه ، وأطلق
فى الثناء على من كل مكان ، بفضل من هو كل يوم فى شأن :

ولست والله فى نفسى قدر واحدة من هذه النعم التى تقلدت عقدها
الشمین ، ولا أنا ممن یفتخر بعلم ولا دین ولا نسب ، ولو شئت لأنشدت :
وكان لنا أبو حسن على . . . أباً براً ونحن له بنین
ثم یعقب على كلامه هذا الشيخ الصفدى فى رده عليه بقوله :
" لو لم یکن مولانا فى هذا الکمال ما حسد على ما حازه من غنائم
المعالی ، ولا ودت النفوس الظالمة أن تسلبه ما وهبه الله من فضله ، ولا تماثلوا
على اهتضام قدره ."

إن العرانیین تلقاها محسدة . . . ولم تجد للثام الناس حسادا
وعلى كل حال فالحمد لله على النصرة ، وضعف قول أهل الكوفة وترجیح
قول أهل البصرة ، فأبو نصر أبو نصر ، وعبد الوهاب عبد الوهاب .،

(١) ولا تطمعن من حاسد فى مودة . . . وإن كنت تبديها له وتنیل

إلى آخر ديباخته (١) .

هذا وقد كان التاج لدى إقامته بالقاهرة فى عز كبير وسعد عظيم
عند الناس هناك، كما تحدث بذلك .

مقام التاج فى القاهرة

يذكر التاج السبكي رحمه الله ملاقاته فى مصر من التعظيم وحب الناس
له والتفافهم حوله : بعد أن صرف عن قضاء الشام فيقول : إنه منذ سافر
من دمشق مستبشرا باع الأسفل بالأعلى وتلا قوله تعالى : " إن الله اشترى من
المؤمنين أنفسهم " (٢) فحمد المشتري، ووصل مصر، فرحا مسرورا وما شكى إليه
جعله طول السرى، ثم أنشد :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى .. تخب بي الركاب ولا أمامى (٣)

(١) ثم أضاف يقول : وأما ما وصفته من حال الحسدة الباغين والمردة
الطاغين فقد رد الله كيدهم فى نحرهم وزخر تيار بحر مولانا فأغرق
وشل نهرهم :

ولو علموا ما يعقب البغى قصروا .. ولكنهم لم يفكروا فى العواقب

انظر هذه المراسلات فى الطبقات ١٠ / ١٦ - ٣٢ .

وتبين مقد ارتكالب أعدائه عليه، وتعصبهم ضده والوشاية به إلى ولي الأمر،
واستماتتهم فى إقصائه عن قضاء الشام بأى ثمن، ولكنهم لم يفكروا فيما
قصدوا إليه، فانتصر التاج وتجاوز المحنة بسلام، قال الشوكاني فى
البدر الطالع ١ / ٤١٠ " وقد أباث فى أيام محنته عن شجاعة وقوة على
المناظرة حتى أقحم خصومه مع كثرتهم .. وهكذا ..

يريد الحاسدون ليطفؤوه .. ويأبى الله إلا أن يتمه

(٢) التوبة آية (١١١) .

(٣) الخيب ضرب من السير، والركاب الإبل : يقول إنه أقام بمصر لآخر به

الإبل إلى الخلف ولا إلى قدام، يعنى أنه أحب مصر ولزم الإقامة بها ،
والبيت للمتنبى فى ديوانه ٤ / ٢٧٦

لكثرة مالقى من التعظيم الذى لو شعر به العدو لما نظم أسبابه ، فقد خيم عليه كرم الله وورد حيث قصد ، فوجد الله عنده فوفاه حسابه ، ولم يخش بحسن ظنه من ذى العرش إقلاقاً ولم يصادف إلا من قال له أهابك إجلالا ، ولم يناده كل محب إلا بهكذا هكذا ، وإلا فلا لا (١) .

ويقول ابن طولون عن هذه الرحلة : " وقد كان أيده الله تعالى فى مدة إقامته بمصر على حال شهيرة من التعظيم والتبجيل يعتقده الخاص والعام ويغتنب بمجالسته ذوو السيوف والأقلام ويزدحم طلبة فنون العلم على أبوابه ويقتدى المتنسكون بما يرونه من آدابه . " (٢)

ونظراً لهذه الحفاوة والتكريم اللذين قوبل بهما التاج فى مصر فقد آنتت نفسه حب البقاء فيها لولا أن كثيراً من أولى الشأن تضرع إليه مراراً فى أن يعود إلى قضاء الشام ، فرض تحت ضغط الشفعاء وعاد أخيراً بعد تمنع وإباء .

(١) يعقب صديقه الشيخ الصفدى على وصفه لما لاقاه فى مصر من التكريم والإجلال فيقول : " وأما ما وصفه مولانا من حال مصر المحروسة وإقبالها عليه وإدلالها لديه فما نقول فى ذلك إلا :
تغايرت الأقطار فيك محبة . . عليك فهذا القطر يحسد ذا القطرا
لا بل نقول :

تغايرت الأقطار فيك فواحد . . لفقدك يبكى إذ لقربك يبسم
وكل مكان أنت فيه مبارك . . وفى كل يوم فيه عيد وموسم
ولا شك فى أن الديار كأهلها . . كما قيل تشقى بالزمان وتنعم
انظر الطبقات ٣١/١٠ .

(٢) راجع الشجر البسام ص ١٠٣ وما بعدها .

عودة التاج إلى قضاء الشام

كان التاج رحمه الله قد وطن نفسه على الإقامة في القاهرة بصفة دائمة، ورغب عن قضاء الشام ومشاكل الناس هناك وعافت نفسه مما حكة^(١) الخصوم، قال ابن كثير: " وكان قد لبس حلة القضاء بالديار المصرية، عند توجه أخيه البهاء إلى الشام . قال : وذكر لي أخوه البهاء " أنه كاره للشام ولا يريد العود إليها " (٢) ، وكان قد تولى وظائف أخيه في القاهرة، وهي تدريس الشيخونة وإفتاء دار العدل، وتدريس الشافعي، والخطابة بالجامع الطولوني، وغيرها مضافا إلى ما بيده بدمشق من التداريس التي لاتعلق لها بالقضاء، وهي تدريس الشامية البرانية، والعذرية، والأمنية، ومشیخة دار الحديث لأشرفية. فأقام بمصر على هذا الحكم واستتاب بمدارسه التي في دمشق بإذن السلطان له في ذلك كما ذكره ابن طولون . ثم قال : " وفي سنة ٧٦٤ هـ سئل رضى الله عنه في العود إلى قضاء الشام على عادته فلم يجب، حتى رجع في ذلك مرارا، وتضرع إليه تكررًا فعاد بحمد الله إلى دمشق قاضيا على قاعدته ودخلها في أول ربيع الآخر ففرت بروية وجهه العيون، وسر بقدومه الناس أجمعون " (٣)

قال ابن كثير: " وجاءه الناس من الخاص والعام يسلمون عليه ويهنئون بالعود، وكان يوم دخوله إلى دمشق كالعيد لأهلها . . " (٤)

-
- (١) المماحكة المنازعة في الكلام والتماذى في اللجاجة ورجل مباحك إذا كان لجوجا عسر الخلق ، انظر اللسان " محك ٤٨٦/١٠ .
- (٢) البداية والنهاية ٢٥٣/١٤ .
- (٣) انظر الثغر البسام ص ١٠٣ .
- (٤) البداية والنهاية ٢٥٦/١٤ .

المبحث الثاني

المحنة الثانية

بعد عودة تاج الدين على رأس قضاء الشام مرة أخرى لم يمض غير وقت قصير حتى بدت مراحل الحقد تشتعل لدى أعدائه من جديد، وكانت في هذه المرة أقوى وأشد من سابقتها، فلفقوا له التهم وكتبوا فيه المحاضر ورموه بما ينبو عنه السمع، ولنصغ إلى معاصره الإمام ابن كثير يحكي لنا واقع الصورة مشاهدة ..

قال ابن كثير: " في سنة ٧٦٧ هـ عقد مجلس حافل بدار السعادة بسبب ما رمى به قاضي القضاة تاج الدين السبكي .

قال : وكنت ممن طلب إليه فحضرته فيمن حضر، وقد اجتمع فيه القضاة الثلاثة، وخلق من المذاهب الأربعة، ومن غيرهم، بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلي (١) وكان قد سافر التاج إلى الديار المصرية واستنجز كتابا إلى نائب السلطنة لجمع هذا المجلس ليسأل عنه الناس (٢) .

قال ابن كثير: " وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان أحدهما له والآخر عليه وفي الذي عليه خط القاضيين المالكي والحنبلي وآخرين ، وفيه عظام وأشياء منكورة جدا ينبو السمع عن استماعه (٣) وفي الآخر خطوط جماعة

(١) تولى نيابة دمشق من سنة ٧٦٤ إلى سنة ٧٦٨ هـ ، انظر ترجمته في الدرر ٣٦٧/٤ .

(٢) البداية والنهاية ٢٦٨/١٤ وما بعدها .

(٣) أمور تضحك السفهاء منها .. ويبيكي من عواقبها اللبيب

هكذا تهم على هذا المستوى من الكيد، فيها عظام وأشياء منكورة جدا ياسبحان الله مانوع هذه التهم؟ لم نقف على نصها، ولا شك أنها كبائر لذلك لم يستغ ابن كثير البوح بها لفرط عظمها لكننا نستشف من قرائن الحال أن في الأمر أغراضا نفسية دفينه وهل يكب الناس

من المذاهب بالشنا عليه وفيه خطي بأني مارأيت فيه إلا خيرا . . . ثم أخذ في سرد الواقعة وذكر ما قام به نائب الشام من الحث على الصلح بينهم ، وتأنيب من شنع على القاضي الشافعي بما كتب في تلك الأوراق . . . فهدأت الأمور ، ولانت القلوب ، وتم الصلح بين الفريقين ، وانقضى الأمر على ما يرام ، ثم عاد تاج الدين من القاهرة إلى دمشق في آخر جمادى الأولى سنة ٧٦٧ هـ ، وتلقاه جماعة من الأعيان والرؤساء ، وخلائق لا يحصون كثرة ولا تسعهم الطرقات والناس يكبرون و هم في سرور عظيم يدعون له ويفرحون بقدمه .

في النار إلا حصائد السنتهم ؟ ، وبالجمللة فللتاج السبكي رحمه الله أسوة حسنة بمن تقدمه من أفاضل العلماء الذين جرت عليهم مثل هذه المحن الشداد ، وحيك حولهم من التهم الباطلة والدسائس المغرضة ما يصدع الجبال ، وقد حكى كوكبة منهم في الطبقات . كابن الصائغ والترمذى والرازي وابن بنت الأعز وغيرهم . وكمثال لهذا انظر ما ذكره في ترجمة قاضي القضاة ابن بنت الأعز (ت ٦٩٥ هـ) وكلامه على محنته العظيمة في الطبقات ١٧٢/٨ والتي حاصلها أن وزير السلطان الملك الأشرف كان يكرهه فعمل عليه وجهاز من شهد عليه بالزور بأمور عظام : قال التاج وكان القاضي بريئاً من ذلك بعيداً عنه من كل وجه ، رجلاً صالحاً لا يشك فيه . وكان آخر الأمر أنه نزل من القلعة إلى الحبس وعزل ، وخيف عليه أن يجهاز الوزير من يقاتله ، فنام عنده تلك الليلة شيخنا أبو حيان ، ثم أخرج من الحبس ، فهذا يدل على سير المتآمرين بالفضلاء على خطة متقاربة ونسبة متشابهة .

" أتواصوا به بل هم قوم طاغوت " (٥٣ الذاريات) .

المبحث الثالث

محنته الأخيرة

توالت المحن على التاج السبكي رحمه الله فما يخرج من شدة إلا ويدخل في أخرى، أكبر منها وأقسى، ففي المحنة الأولى خرج رافع السراش متوجاً بالعزة والنصر، وفي الثانية كانت الهزة أعنف، والرجفة أشد، ولكنه خرج منها خائفاً يترقب، أما الثالثة هذه فقد أطاحت به إلى السجن وكانت المحنة الكبرى في حياته .

وقد عرفت كيف تكالبت عليه الأعداء في المرتين الأوليين فأجلبوا وألبوا واتهموه بعظائم الأمور ولكنه ثبت وصمد ولم تلن له قناة فتبين لمناوئيه أنهم ينطحون في صخر وأنه يصدق فيهم قول القائل :

ياناطح الجبل العالي ليكلمه . . اشفق على الرأس لا تشفق على الجبل
أما هذه المرة فقد أعملوا الرأي كثيراً، وتدبروا الأمر بحرقه وروية، وتأكدوا أن ليس أمامهم إلا أن يستعينوا عليه بالسلطة، ليثبتوه أو يخرجوه، فتوجهوا نحو نائب السلطنة الأمير على المارديني، فقبلوا نظره عليه بوسائلهم الخاصة التي يحسنون استعمالها، فأنحرف عنه هذا النائب (١) رغم ما كان له من ديانة وتصون وحب للعلماء (٢)، ورغم أنه كان من أصدقاء التاج لمدة

(١) قال ابن حجر في ترجمة هذا الأمير في الدرر ٣/ ٧٧: "وكان منحرفاً عن تاج الدين السبكي، وهو من أعظم أسباب المحنة الكبرى التي جرت له في سنة ٧٦٩ هـ، قال: وكان هذا الأمير أول ما ولى نيابة الشام سنة ٧٥٣ هـ فباشرها نحو ست سنين، ثم عزل ثم أعيد سنة ٧٦٢ هـ دون السنة ثم عزل وأقام بطالا، ثم ولى النيابة في مصر والشام سنة ٧٦٩ هـ إلى أن مات في محرم سنة ٧٧٢ هـ وانظر

النجوم الزاهرة ١١/ ١٠٨ .

(٢) وقد ذكره التاج في معيد النعم وأثنى عليه ووصفه بالديانة ==

طويلة فقد عمل معه موقعا للدست ونائبا للحكم وقاضيا للقضاة ومع ذلك فقد انطلت عليه وشاية الخصوم وانحاز إلى جانبهم ضد التاج السبكي، ولكنه على كل حال حاكم يسوءه أن يخالف في بعض أمره .

ولعل التاج كان قد خالفه في بعض هواه، ونقم عليه بعض مالا يرضاه . لاسيما وأن التاج قد كان في قضاءه صارما لا يلين في الحق ولا يرهبه سلطان وهذا الأمير كان قد ولي في سنة ٧٦٩ هـ نيابة مصر بعد نيابة الشام فاتسع سلطانه، وقويت كلمته، فكان أول شيء تكلم فيه واهتم له عزل تاج الدين من قضاء الشام .

قال ابن حجر: " وكان من أقوى الأسباب في عزله في المرة الأخيرة أن السلطان لما رسم بأخذ زكوات التجار في جمادى الأولى سنة ٧٦٩ هـ وجد عند الأوصياء جملة مستكثرة من الأموال لكنها صرفت بوصلات ليس فيها تعيين اسم القابض فأريد من ناظر الأيتام أن يعترف أنها وصلت للقاضي فامتنع قال الأمر إلى عزل القاضي . . " (١) .

فانظر كيف اتخذت هذه الحكاية ذريعة إلى العزل : هكذا وجدوا أوراقا فيها أخذ أموال من التجار برسم الزكاة ولم يتبين مصارفها فاتهم بها القاضي ، ولم يكن هناك حجة على وصول الأموال إلى القاضي فتحيلوا بذلك على عزله .

فهل مثل هذه الحكاية الواهية يصح أن تكون سببا في صدور مثل هذا القرار المجحف في حق تاج الدين ؟ الحقيقة أن الأمر فيه غموض

== و الصلاح ، انظر معيد النعم ص ٥٠ وراجع الطبقات ١٠ / ١٩٣ ، الدرر الكامنة (٢ / ٤٢٦) ، السلوك للمقرئ ٣ / ٢٠ .

(١) انظر الدرر الكامنة (٢ / ٤٢٦) .

شديد كما ترى (١) ، خاصة وأن الرجل قد أعيد إلى منصبه آخر الأمر فليس بمعقول أن يكون للتهمة المالية أى أساس وإنما تلتبس الأسباب الصحيحة لما حل به من محنة فى طبيعة المنصب إذا وليه رجل من طراز تاج الدين ، لا يلين للموثرات التى تأتى من ناحية ذوى النفوذ فى الحكومة ، ثم فى الدسائس التى يحركها الحسد فى نفوس من لا يحتملون مايرون فى غيرهم من فضل ، كما أن أراء التاج الصريحة والجريئة فى كتابه "معيد النعم" قد كانت بلا شك من أقوى الأسباب فى عزله واختلاق هذه الأحداث حوله ، فقد استطاع الرجل أن يعالج مشكلات الأمة الإسلامية فى هذا الكتاب ، وينقد طوائف الناس فى عصره مبتدئا بالسلطان والمناصب السلطانية والعسكرية متدرجا إلى كل الوظائف العامة ، حتى وصل إلى الفلاح فى أرضه وقرر أنه حر لا يد لأدمى عليه ، فمثل هذه الأمور هى التى رسمت جوانب المأساة فى نظرى وأدت إلى إعمال الحيلة فى عزله عن القضاء ، وبأوهى الأسباب وأسخفها ، ولم يكتفوا بذلك بل وجهت إليه الخصومة وعقدوا له مجلس حكم وكشفوا عليه فلم يجدوا عليه أدنى شائنة وأخيرا أرسلوه إلى السجن عليهم أن يشفوا منه الغليل .

قال الشوكاني : " وقد اجتهدوا فى طلب عشرة واحدة من عثراته فلم يجدوا " (٢) .

(١) التاج السبكي صاحب التراجم لممتعة فى الطبقات لم يكتب ترجمة لنفسه ولو فعل ذلك لكشف الغطاء عن هذا الغموض وأبان كثيرا من مجهولات حياته ، لكنه رحمه الله لم يعيش إلى السن التى يصح فيها أن يفكر فى مثل هذه الترجمة ، ولم يوجد من معاصريه من ترجم له ترجمة مفصلة ، ولعل ذلك لم يكن فى الإمكان ، إذ ربما كان هناك من ذوى النفوذ من يحرص على طمس هذه الشخصية وإخفاء معالمها ، وإلا لما عدم من يقوم بذلك .

(٢) رحم الله شيخنا التاج ما كان أمثله بقول أبى الطيب فى ديوانه ٨٧/٤
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم . . ويكره الله ما تأتون والكرم
وأنظر البدر الطالع ١/٤١٠ .

ومع ذلك فقد حكم عليه ابن قاضي (١) الجبل في هذا المجلس بأن
بحبس سنة فتوجهوا به إلى قلعة دمشق وحبس هناك ثمانين يوماً ثم أفرج
عنه وأعيد إلى القضاء كما كان مرموقاً شامخاً فوق هامات الجميع .

قال ابن حجر : " وقد أبان في أيام محنته رحمه الله عن شجاعة
وقوة على المناظرة حتى أفحم خصومه مع كثرتهم وتواطئهم عليه ، وكان كريماً
مهيئاً تخضع له أرباب المناصب من القضاة وغيرهم ، ثم لما عاد عفا وصفح
عن كل من أساء إليه . . " (٢)

تزايد الحلم من زاكي سجيته . . فلم يكن من عداه قط ينتقم
موفق الحكم والفتوى على رشد . . . ماند منه على ما قد مضى ندم (٣)

(١) ابن قاضي الجبل هو القاضي أحمد بن الحسن بن عبد الله المقدسي
المتوفى (٧٧١ هـ) ، قال ابن حجر : " ولي القضاء سنة ٧٦٧ هـ فلم
يحمد في ولايته وكان عنده مداراة وحب للمنصب .
وقال ابن كثير : " لم تحمد مباشرته للقضاء ولا فرح به صديقه بل
شمت به عدوه وبأشر القضاء دون أربع سنين وكان فيه مزح وإنكاس
في البحث ومن شعره رحمه الله قوله :
نبي أحمد وكذا إمامي . . وشيخي أحمد كالبحر طامي
واسمي أحمد وبذاك أرجو . . شفاعة أحمد الرسل الكرام
انظر الدرر الكامنة ١ / ١٢٠ ، الدارس في تاريخ المدارس ٢ / ٤٥ ،
شذرات الذهب ٦ / ٢١٩ .

(٢) انظر الدرر ٢ / ٤٢٨ ، شذرات الذهب ٦ / ٢٢١ .

(٣) البيتان للصالح الصفدي أنظر الطبقات ١٠ / ٣٢٦ .

الفصل السابع :

فى ذكر مؤلفاته ووفاته

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : فى ذكر مؤلفاته وآثاره العلمية

المبحث الثانى : فى وفاته

الخاتمة

المبحث الأول

مؤلفاته وآثاره العلمية

ترك التاج السبكي رحمه الله للمكتبة الاسلامية آثارا بديعة نافعة وتأليف قيمة تشهد له بالعلم الغزير والفضل المبين .

ورغم قصر عمره فقد تعددت مؤلفاته، وشملت أنواعا شتى من العلوم ، لذلك كان يقول رحمه الله : " لا يخلو لنا وقت يمر بنا خاليا عن التصنيف ولا يخلو لنا زمن إلا وقد تقلد عقده جواهر التأليف، ولا يخلو علينا الدهر ساعة إلا ويعمل فيها القلم بالترتيب والترصيف . . . " +

وقد رزق السعد في تأليفه فطارت وانتشرت بين الناس في حياته ، وكانت بعد موته أوسع انتشارا وأكثر نفعا، مما يدل بوضوح على إخلاصه وحسن سريرته وإرادته وجه الله تعالى بها : فمن هذه الآثار :

أولا : في أصول الفقه :

- (١) الابهاج شرح منهاج البيضاوى - مطبوع .
- (٢) رفع الحاجب شرح مختصر ابن الحاجب " حقق في الأزهر ولم يطبع بعد " جمع الجوامع - مطبوع .
- (٣) منع الموانع - وهو كتابنا موضع التحقيق .
- (٤) التعليقة في أصول الفقه - مخطوط : وقد ذكره في باب الاجماع من رفع الحاجب وأشاد به .

ثانيا : في الفقه :

- (١) التوشيح " على التنبيه والمنهاج والتصحيح " مخطوط .
- (٢) ترشيح التوشيح في اختيارات والده الشيخ الامام - مخطوط

- ذكرهما المؤلف في الطبقات ١١٦/٨، ٢٥٨/١٠ وذكرهما في كشف الظنون ٣٩٩/١، ٥٠٧/١، وابن حجر في الدرر ٤٣٥/٢، والسيوطي في الأشباه والنظائر ص ١٢٢، ٥٦، ٤٧
- (٣) أرجوزة في الفقه مخطوطة - أورد منها السيوطي في كتابه الرد على من أخلد إلى الأرض ص ٢٢ بعض الأبيات ومنها قوله :
ولا تجوز جمعتان في بلد .. وإن تناهى الخلق في العسر الأشد
وضاق بالجم الغفير المسجد .. نص عليه الشافعي الأوحــــــــــــد
واختاره الشيخ الامام وقضى .. بأنه الدين لقويم المرتضى
أوضح المسالك في المناسك : ذكره بروكلمان .
- (٤) تبين الأحكام في تحليل الحائض .. ذكره بروكلمان .
- (٥) رفع الحوبة في وضع التوبة .. ذكره المصنف في الطبقات ٣٢٧/٢ .
- (٦) جزء في الطاعون .. ذكره حاجي خليفة .
- (٧) فتاوى .. ذكره بروكلمان .
- (٨) أرجوزة في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم و معجزاته ذكرها في الطبقات ٢٠٥/٩ ومنها قوله :
- (٩) وهو إذا احتاج إلى مال البشر .. أحق من مالكة بلا نظــــــــر
لأنه أولى بذي الإيمان .. من نفسه بالنص في القرآن

ثالثا : في الحديث :

- (١) أحاديث رفع اليدين - ذكره بروكلمان .
- (٢) جزء على حديث المتبايعين بالخيار - ذكره في الطبقات ١٩١/١٠
- (٣) كتاب الأربعين - ذكره في الطبقات أيضا ١٧١/٩ .
- (٤) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للغزالي وأظنه قد طبع، وانظر الطبقات ٢٨٧/٦ .

رابعاً : التاريخ والتراجم :

- (١) الطبقات الكبرى ، وهي مطبوعة محققة في عشرة أجزاء .
- (٢) الطبقات الوسطى ، والصغرى وهما مخطوطان .

خامساً : في العقائد :

- (١) السيف المشهور في شرح عقيدة أبي منصور الماتريدي ذكره المصنف في كتابنا هذا في مسألة الإسم هل هو المسمى أو غيره ؟
- (٢) قصيدة نونية في العقائد أوردها في الطبقات ٣ / ٣٧٩ وذكر فيها مسائل الخلاف في أصول الدين بين الحنفية والأشعرية .

سادساً : في القواعد الفقهية :

- (١) له الأشباه والنظائر ، وقد حقق في جامعة الأزهر ولم يطبع .

وله كتب أخرى منها ..

- (١) الدلالة عن عموم الرسالة جواباً عن أسئلة أهل طرابلس ذكره بروكلمان .
 - (٢) مناقب الشيخ أبي بكر بن قوام ، ذكره بروكلمان أيضاً .
 - (٣) مصنف في الأحاجي والألغاز ذكر منه في الطبقات ٢٤ بيتاً - انظره ١٣٥ / ٩ ، وذكره أيضاً في معيد النعم ص ١٠٠ .
 - (٤) كتاب معيد النعم ومبيد النقم - مطبوع .
- وهو كتاب قيم تكلم فيه المصنف على مختلف طبقات الناس في عهده فهو مع صغر حجمه كتاب جامع فيه سياسة وأدب وتاريخ واجتماع وغير ذلك .

هذه بعض مؤلفاته التي استطعنا العثور على أسمائها وتسجيلها

هنا، ولعل له مؤلفات أخرى يكشف عنها الزمان .

ولو لم تكن إلا هذه فإنها أصدق شاهد على سعة علمه وعمق درايته وتخليد أثره .

تلك آثارنا تدل علينا . . فانظر وابعدنا إلى الآثار

هذا وقد كان من عادة المصنف رحمه الله الإشادة بكتبه وتأليفه وإظهار محاسنها للخلق ، فنراه كثيرا ما يحيل القارىء على كتاب صنفه ثم يشوقه إلى ذلك أيما تشويق .. كقوله مثلا فى هذا الكتاب عند كلامه على "أن اللفظ محمول على عرف المخاطب أبدا" . . قال : " وتقريره مستوفى فى شرح المختصر ، ثم قال : وقد أطلنا القول فى تحقيق هذا الموضوع فى كتابنا الأشباه والنظائر وهو الكتاب الذى لا يليق بالمجد فى طلب العلم أهمله ولا يسع طالب التحقيق إغفاله " (١) .

وقوله فى مبحث (لو) وأنت إذا نظرت ما حررناه فى منوع التعليل بعلتين فى شرح المختصر، والتعليقة وغيرهما من كتبنا ظهر لك هذا ظهورا قويا . . (٢)

وقوله عن جمع الجوامع فى آخره : "قدروك مختصرا بأنواع المحامد حقيقا وأصناف المحاسن خليقا" (٣) .

ولم يكن التاج السبكي يفعل ذلك تبجحا وافتخارا، ولا يقصد بذلك إظهار مصنفاته والاستكثار بها معاذ الله ، وإنما يريد الإرشاد إلى الخير والإشارة إليه وبيان مظانه والدلالة عليه .

(١) انظر ذلك ص ٤١١ - تحقيق

(٢) انظر ص ١٩٤ - تحقيق

(٣) انظره فى مجموع المتون ص ١٨٥ .

المبحث الثاني

وفاته رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

عزل تاج الدين في المرة الأخيرة في جمادى الأولى سنة ٧٦٩ هـ ثم حوكم وسجن في قلعة دمشق، حوالي ثمانين يوماً وكان نائب الشام قد قرر في القضاء عوضاً عنه الشيخ سراج الدين البلقيني، فولي القضاء والخطابة .

قال ابن حجر : " ولم يزل من يطالب بعودة السبكي يلح على أمير علي، حتى أذن في الإفراج عنه واحضاره، فلما بلغ ذلك البلقيني توجه إلى مصر، فأقام قليلاً، ثم رجع إلى دمشق فتسلط عليه أهل الشام، وكتبوا فيه محضراً، وأسمعوه ما يكره، وكان بهاء الدين السبكي في القاهرة فسعى لأخيه بالخطابة فخطب أول يوم من شوال، فشق ذلك على البلقيني وخرج بأهله وعياله إلى القاهرة فأعيد تاج الدين إلى القضاء وهي الولاية التي مات فيها" (١) .

وصنف في أثنائها كتابه الترشيح في اختيارات والده في الفقه فانتهى منه في آخر شعبان سنة سبعين وسبعمائه ٧٧٠ هـ كما حكاه عنه العطار (٢) ثم استأثر الله بروحه ومات رحمه الله في سابع ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وسبعمائه شهيداً بالطاعون (٣) عن قرابة أربع وأربعين سنة (٤) قضاها في مرضاة الله طاعة وفقها في الدين وجهاداً في العلم

(١) انظر الدرر الكامنة ٢/ ٤٢٧ .

(٢) راجع حاشية العطار ٢/ ٣٣٠ .

(٣) ورد في الحديث : " الطاعون شهادة لكل مسلم " رواه البخاري ١٥/٤

(٤) حيث اختلف في سنة ولادته فذكر ابن حجر في الدرر ٢/ ٢٥٨ أنه

ولد سنة ٧٢٧ هـ وقال شيخه الذهبي في المعجم المختصر ١٥٢ أنه

ولد سنة ٧٢٨ هـ وذكر الزبيدي في تاج العروس ١٤٠/٧ أن ولادته كانت

سنة ٧٢٩ هـ .

والعمل ، قال ابن حجر : " خطب يوم الجمعة فطعن ليلة السبت ومات رابعه ليلة الثلاثاء (١) " رحمه الله رحمة واسعة ، وأنزل على جدته شآبيب الرحمة والرضوان .

فطويت بموته صفحة مشرقة حافلة بالعطاء والجِد والانتاج العلمى المبارك . . . وهكذا . .

حكم المنية فى البرية جار . . ماهذه الدنيا بدار قرار
بيننا ترى الانسان فيها مخبرا . . ألفيته خبرا من الأخبار
فالعيش نوم والمنية يقظة . . والمرء بينهما خيال سار
وقد خلف رحمه الله ذرية سالحة وأبناء بررة علماء منهم ولده تقى
الدين ابن عبد الوهاب السبكي .

قال ابن العماد " دُرُس فى حياة والده تاج الدين بالمدرسة
الأمينية ، وعمره سبع سنين ، قال : وهذا من العجائب ، وولى خطابة الجامع
الأموى بعد أبيه ، وعمره عشر سنين ، وتوفى رحمه الله بالطاعون سنة ست
وسبعين وسبعمائة ٧٧٦هـ " (٢) .

(١) وهو بمنزله بالدهشة بظاهر دمشق ودفن فى مقبرة السبكية بسفح

الجبل المشرف على مدينة دمشق .

(٢) انظر شذرات الذهب ٦ / ٢٢٣ ، وترجم السخاوى لأحدى بناته

العالمات فقال : " هى سالحة ابنة التاج عبد الوهاب بن على بن

عبد الكافى السبكي ، أجاز لها العز بن جماعة وغيره ولقيها الزين

رضوان فاستجازها قال السخاوى وأظن أننى قرأت عليها شيئا " .

انظر الضوء اللامع ١٢ / ٧٠ .

الخاتمة

بعد هذه الأحاديث الشيقة عن التاج السبكي رحمه الله وبعد هذه الدراسة المتواضعة التي حاولت فيها إبراز بعض معالمه وخصائصه ، نقف هنا لنسجل خاطرة فقهية أوردتها في كتابه القيم " ترشيح التوشيح " في الفقه (١) رأيت من اللائق أن لا نغفل هذه الدراسة من الإشارة إليها خاصة وأنها تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وهذا الكتاب المذكور أخرجه المصنف في أواخر أيامه . . قال العطار وهو من أجل كتبه ، ثم قال : وقد وقعت إلي نسخة من هذا الكتاب وأنا بمدينة دمشق بالشام . .

ومقدمة ذلك الكتاب بخطه فاشتريتها وجاء في آخرها قوله : " فرغت

(١) - هذا الكتاب هو عبارة عن شرح لكتاب آخر في الفقه اسمه " توشيح التصحيح " وضعه المصنف على التنبيه ، والمنهاج ، والتصحيح وذكر أنه التزم فيه ترجيحات والده الشيخ الامام ، قال : " ولما انتهيت فيه إلى كتاب الطلاق عسر علي بعده معرفة اختياراته ، إلا في النادر ، مما وضعت من تصانيفه اللطاف " .

وذكر أنه أكمل هذا الكتاب سنة ٧٦١ هـ ثم عمل عليه ترشيح التوشيح فيما بعد .

وذكر محققا الطبقات أن كتاب " ترشيح التوشيح " في أصول الفقه وليس كذلك بل هو في الفقه كما ترى ، وقال الزركلي في الاعلام ١٨٤/٤ إن " توشيح التصحيح " في أصول الفقه .

وهو خطأ أيضا : والصواب أنهما في الفقه قال ابن حجر في الدرر ٤٢٥/٢ وقد عمل في الفقه التوشيح والترشيح وذكرهما كذلك السيوطي في الأشباه والنظائر ص ٤٧ ، ٥٦ ، ١٢٢ ، صاحب كشف الظنون ١/٣٩٩ ، ٥٠٧/١ ، وانظر كلام المؤلف عنهما في الطبقات ٨/١١٦ ، ١٠/٢٥٨ .

من تصنيف هذا الكتاب فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان المكرم سنة سبعين وسبعمائة بمنزلى بالدهشة ظاهر دمشق المحروسة وأرسلت فى صفر سنة ١١٠١ وسبعين وسبعمائة منه نسخة إلى أخى الأستاذ العلامة المحقق بهاء الدين أبى حامد أحمد . . إلى آخر ما قاله وجاء فى الكتاب عن واقعة زيد بن ثابت رضى الله عنه قول المصنف رحمه الله فى هذه القصة حكى الإمام الغزالى عند ذكر خصائص النبى صلى الله عليه وسلم مانصه " وقالوا إذا وقع بصره على امرأة فوقعت منه موقعا وجب على الزوج تطليقها لقصة زيد ، قالوا : ولعل السرفيه من جانب الزوج امتحان إيمانه بتكليفه النزول عن أهله ، ومن جانبه صلى الله عليه وسلم ابتلاؤه ببليّة البشرية ومنعه من خائنة الأعين ومن إضمار ما يخالف الإظهار ، ولذلك قال تعالى : " وتخفى فى نفسك ما الله مبديه " الآية (١)

ونقله الرافعى عن الوسيط ساكتا عليه (٢) . . ثم قال :

قال لنا الشيخ الامام مرات هذا منكر من القول ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعجبه امرأة أحد من الناس وقصة زيد إنما جعلها الله تعالى قطعا لقول الناس إن زيدا ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإبطالا للتبني فى الاسلام كما صرح به سورة الأحزاب من أولها إلى آخر القصة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : " ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه " (٣) أى من أبوين فى الإسلام ، إلى قوله تعالى : " وما جعل أدعياءكم أبناءكم " .

(١) سورة الأحزاب آية (٣٧) .

(٢) ونقله أيضا النووى فى الروضة ٧ / ٩ ، والرملى فى نهاية المحتاج ٦ / ١٧٨

قال الرملى : " وتجب إجابته صلى الله عليه وسلم على امرأة رغب فيها وعلى زوجها طلاقها " .

(٣) سورة الأحزاب آية (٤) .

ذلك قولكم بأفواهكم" إلى أن قال : " أدعوهم لأبائهم هو أ قسط عند الله" (١)
ثم ساق الله تعالى السورة إلى أن قال : " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا -
قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم" (٢) تحريض على امتثال
أمره تعالى فى طلاق امرأة زيد ، ثم قال تعالى " وتخفى فى نفسك ما الله
مبديه " أى من أمر زيد بطلاق امرأته وتزوجك أنت إياها ، لا أمر محبتها
معاذ الله ثم معاذ الله ، ثم بين الله تعالى بالقول الصريح بعد التعريض
الطويل أن السرفى ذلك لإبطال التبنى ونسخه ورفع بالقول والفعل
ليعلم الناس أنه لو كان ولدًا له لما تزوج امرأته ، فقال تعالى : " لكى
لا يكون على المؤمنين خرج فى أزواج أدعيائهم" (٣) ثم قال بعده " ما كان
محمد أبًا أحد من رجالكم" (٤) فمن تأمل السورة وعرف شيئًا من حال رسول
الله صلى الله عليه وسلم يتقن بالعلم القاطع أن تزوج امرأة زيد إنما كان
لذلك لا لغيره ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان أكره الناس بالطباع البشرية
لزواجها عكس ماتوهمه الغزالي ، وكان يشق عليه ذلك مشقة شديدة ولكنه
ما كان ليتمكن أن يخفى شيئًا مما أنزله الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى
" وتخفى فى نفسك ما الله مبديه " ، فنزلت الآية آمرة له صلى الله عليه وسلم
بإظهار ما أمر الله من زواجها لإبطال التبنى وإن كان زواجها أشق
شيء عليه صلى الله عليه وسلم " (٥) .

قلت وينبغى لكل مسلم أن يعرف هذا وإنما لزمنا ذكره هنا لنفاسته

(١) الاحزاب آية (٥) .

(٢) الاحزاب آية (٣٦) .

(٣) الاحزاب آية (٣٧) .

(٤) الاحزاب آية (٤٠) .

(٥) انظر النص كما نقله العطار فى حاشيته ٣٣٠ / ٢ .

إذ ربما وقع السوء ال عنه فيعسر الوقوف عليه لعزّة وجود ذلك الكتاب.

ولنرى أن بعض الفقهاء رحمهم الله يعطون مادة ومجالاً لأعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم، للطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنقيص من جنابه بما يسرّجونه وينقلونه في كتبهم من هذه الإشاعات المنكرة والأقوال الساقطة، فينبغي حذف مثل هذه الأقوال من كتب الفقه والتنبيه عليها بما يكشف عورها، ويبين زيفها لئلا يتخذها الكفرة ذريعة للنيل من الإسلام، ونبيه صلى الله عليه وسلم، والله المستعان .

والى هنا ينتهى بنا المطاف فى هذه الدراسة العاجلة، عن حياة التاج السبكي رحمه الله، فنسأل الله السداد فى القول والعمل، والتوفيق فى الحال والمآل، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباحث

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	صفحة
(سورة البقرة)		
يوسف الحكمة من يشاء	٢٦٩	١١٩
(سورة آل عمران)		
ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا	٨	أ
ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون	١٣٩	١٩
(سورة النساء)		
أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله	٥٤	١١٩
فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم	٦٥	١٤٥
(سورة الانعام)		
فقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين	٤٥	١٨
(سورة الاعراف)		
أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون	٩٧	١٦
(سورة الانفال)		
ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم	٤٦	٦
(سورة التوبة)		
إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم	١١١	١٦٣
(سورة الرعد)		
إنما يتذكر أولو الالباب	١٩	٦
(سورة الكهف)		
الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب	١	أ

رقم الصفحة	رقمها	الآية
		(سورة الاحزاب)
١٨٠	٤	ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه
١٨١	٥	أدعوهم لأبائهم
١٨١	٣٦	وما كان لمؤمن من ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا
“	“	أن يكون لهم الخيرة من أمرهم
١٨٠	٣٧	وتخفى في نفسك ما الله مبديه
١٨١	٤٠	ما كان محمد أبا أحد من رجالكم
		(سورة الشورى)
٦٧	١١	ليس كمثله شيء * وهو السميع البصير
		(سورة الذاريات)
١٦٧	٥٣	أتواصوا به بل هم قوم طاغون
		(سورة الطلاق)
١٤٩	١	ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه

فهرس الأحاديث

رقم الصفحة

١٢٢

صلوا كما رأيتموني أصلى

١٧٧

الطاعون شهادة لكل مسلم

أ

اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت

٣٥

من قتل قتيلا فله سلبه

أ

من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين

٧٧

لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر

أ

لا يشكر الله من لا يشكر الناس

فهرس مصادر الدراسة

- (١) الآيات البينات لأحمد بن قاسم العبادى على شرح الجلال المحلى
على جمع الجوامع - طبع دار الطباعة العامة بمصر سنة
١٢٨٩هـ
- (٢) الابهاج فى شرح المنهاج للامام تقى الدين السبكى وولده تاج
الدين السبكى - طبع دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة
الاولى عام ١٤٠٤هـ.
- (٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تحقيق محمد محى الدين
عبد الحميد طبع مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثانية عام
١٣٧٧هـ
- (٤) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكى مخطوط بمركز البحث العلمى
بجامعة ام القرى تحت رقم ١٠٩١.
- (٥) انباء الغمر بأبناء العمر فى التاريخ لابن حجر العسقلانى
(ت ٨٥٢هـ) طبع دار الكتب العلمية - بيروت
- (٦) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لمحمد بن أحمد الحنفى طبعة
عيسى الحلبي بالقاهرة الطبعة الاولى - تحقيق محمد مصطفى
- (٧) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى طبع
دار المعرفة - بيروت .
- (٨) البداية والنهاية لابن كثير (ت ٧٧٤هـ) طبع المتوسط ببيروت
- (٩) البيت السبكى لمحمد الصادق حسين طبع دار الكاتب المصرى
بالقاهرة عام ١٣٧٠هـ
- (١٠) القاضى البيضاوى وأثره فى أصول الفقه لجلال الدين عبد الرحمن
طبع مطبعة السعادة بمصر الطبعة الاولى عام ١٤٠١هـ

- (١١) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي - طبعة الاولى بالمطبعة الاخيرية بمصر عام ١٣٠٦ هـ
- (١٢) تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١) هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - طبع دار السعادة بمصر الطبعة الثانية عام ١٣٢٨ هـ
- (١٣) تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم لابن جماعة طبع دار الكتاب العربى بيروت .
- (١٤) تقرير الاستناد فى تيسير الاجتهاد للسيوطى طبع بيروت ١٤٠٥ هـ
- (١٥) الثغر البسام فيمن ولى قضاء الشام لشمس الدين ابن طولون (ت ٩٥٣ هـ) - تحقيق صلاح الدين المنجد طبع المجمع العلمى العربى بدمشق عام ١٣٧٥ هـ .
- (١٦) جمع الجوامع لتاج الدين السبكي مطبوع مع شرح الجلال المحلى وحاشية العطار بمطبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر عام ١٣٥٨ هـ
- (١٧) حاشية العطار على شرح الجلال المحلى لجمع الجوامع طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر عام ١٣٥٨ هـ
- (١٨) حسن المحاضرة للسيوطى تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم طبع مطبعة عيسى الحلبي بمصر الطبعة الاولى ١٣٨٧ هـ
- (١٩) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى طبع بولاق بمصر سنة ١٢٢٠ هـ
- (٢٠) الدارس فى تاريخ المدارس لمحمد النعمي (ت ٩٢٧ هـ) تحقيق جعفر الحسنى طبع مكتبة الثقافة بالقاهرة عام ١٤٠٨ هـ
- (٢١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى طبع دار الجيل - بيروت .

- (٢٢) ديوان أبي تمام شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية طبع دار صعب - بيروت .
- (٢٣) الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض - للجلال السيوطي - تحقيق الشيخ خليل الميس طبع دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ
- (٢٤) رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب لتاج الدين السبكي مخطوط بمكتبة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة تحت رقم ٢١٩ أصول فقه .
- (٢٥) روضة الطالبين للإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ) اشراف زهير الشاويش طبع المكتب الاسلامي بيروت الطبعة الاولى عام ١٤٠٥ هـ
- (٢٦) السلوك لمعرفة دول الملوك لتقى الدين احمد بن علي المقرئ تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور طبع دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م
- (٢٧) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد عبد الحى الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) نشر المكتب التجارى بيروت .
- (٢٨) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي نشر دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .
- (٢٩) طبقات الحفاظ للسيوطي تحقيق علي محمد عمر الطبعة الاولى سنة ١٣٩٣ هـ مطبعة الاستقلال الكبرى
- ٢٣٠ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح حلو - الطبعة الاولى سنة ١٣٨٣ هـ طبع مكتبة ابن تيمية بالقاهرة .
- (٣١) فتاوى السبكي لتقى الدين علي بن عبد الكافي السبكي - طبع دار المعرفة - بيروت .

- (٣٢) فهرس الفهارس والاثبات لعبد الحى الكنانى - طبع بيروت .
- (٣٣) قواعد الاحكام فى مصالح الانام لعز الدين ابن عبد السلام
(ت ٦٦٠ هـ) طبع دار الكتب العلمية بيروت
- (٣٤) كشف الظنون عن اُسامى الكتب والفنون تأليف مصطفى بن عبد الله
الشهير بحاجى خليفة - طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م
- (٣٥) لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) طبعة دار صادر - بيروت
- (٣٦) المتنبى* لمحمود شاکر طبع مطبعة المدنى بالقاهرة عام ١٤٠٧ هـ
- (٣٧) مدارج السالكين لابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تحقيق محمد حامد الفقى
طبع دار الكتاب العربى - بيروت عام ١٣٩٢ هـ
- (٣٨) المعجم المختص بالمحدثين لشمس الدين الذهبى تحقيق الدكتور
محمد الحبيب الهيلة - الطبعة الاولى عام ١٤٠٨ هـ مكتبة
الصدى بالطائف .
- (٣٩) معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى تحقيق محمد على النجار
طبع دار الكتاب العربى بمصر - الطبعة الاولى عام ١٣٦٧
- (٤٠) الموافقات فى اصول الشريعة للامام الشاطبى (ت ٧٩٠ هـ) تعليق
عبد الله دار ز طبع دار المعرفة - بيروت
- (٤١) النجوم الزاهرة فى اعيان مصر والقاهرة لجمال الدين يوسف بن
تغر بردى الاتابكى (ت ٨٧٤ هـ) طبع المؤسسة المصرية
العامه سنة ١٣٨٣ هـ
- (٤٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لشمس الدين الرملى طبع
المكتبة الاسلامية
- (٤٣) الوافى بالوفيات لصالح الدين الصفدى (ت ٧٦٤ هـ) تحقيق محمد
ابن ابراهيم ومحمد بن الحسين الطبعة الثانية سنة ١٣٩٤
بمطبعة دار صادر بيروت .
- (٤٤) الوفيات لتقى الدين السلامى (ت ٧٧٤ هـ) تحقيق صلاح مهدى عباس
الطبعة الاولى بيروت عام ١٤٠٢ هـ .

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
أ	المقدمة
و	سبب اختيار الموضوع
ح	خطة الدراسة
	(الحالة السياسية)
١	تمهيد فى أثر البيئـة
٢	بداية تكوين دولة المماليك
٤	قضاء التتار على الخلافة العباسية ببغداد
٧	وقعة عين جالوت
١٠	إعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة
١٤	التصارع على السلطة عند حكام المماليك
١٦	صور من ذلك التصارع
٢٠	تشوف الناس إلى المناصب والسعى فى طلبها
٢٢	موقف التاج السبكى من الأحداث السياسية فى عصره
	(الحالة الاجتماعية والاقتصادية)
٢٦	طبقات المجتمع فى عصر التاج السبكى
٢٦	الطبقة الحاكمة
٢٧	طبقة العلماء والفقهاء
٢٩	طبقة العامة
٣١	طبقة أهل الذمة
٣٢	البدع والخرافات السائدة فى ذلك العصر
٣٥	الناحية الاقتصادية

(الحالة العلمية)

- ٣٩ النشاط العلمى فى عصر التاج السبكى
- ٤٢ التدرج فى التعليم
- ٤٤ أسباب ازدهار الحياة العلمية فى ذلك العصر
- ٤٦ اهتمام الامراء بالعلم والعلماء
- ٥٢ ظهور شخصية العلماء
- ٥٤ التقليد والتعصب المذهبى

(حياة التاج السبكى)

- ٥٩ مولده
- ٦٠ اسمه ونسبه
- ٦٣ نشأته وطلبه للعلم
- ٦٧ عقيدته

(شيوخه)

- ٦٩ أبو الحجاج المزى
- ٧١ أبو عبد الله الذهبى
- ٧٤ أبو حيان النحوى
- ٧٦ والده تقى الدين السبكى
- ٨٠ الشيخ صلاح الدين الصفدى

(تلاميذه)

- ٨٣ الامام ابن الجزرى
- ٨٤ الشيرازى
- ٨٤ الحمودى
- ٨٥ اللخمى

الموضوع	رقم الصفحة
السلمى	٨٥
ثناء العلماء عليه	٨٧
(دراسة الكتاب)	
مصطلحات المصنف فى الكتاب	٩٠
مصادر الكتاب	٩١
أهمية الكتاب	٩٢
ملاحظات على الكتاب	٩٥
أسلوبه	٩٧
منهجه	٩٩
(التعريف بكتبه الأصولية)	
الابهاج	١٠٦
شرح المختصر	١٠٦
جمع الجوامع	١٠٧
منع الموانع	١٠٩
اعتداده بآرائه فيها	١١٠
انصافه لخصومه	١١١
رجوعه الى الحق	١١١
(مكانة العلمية)	
تمهيد	١١٤
ابن السبكي الأصولى	١١٦
، ، ، الفقيه	١١٨
، ، ، المجتهد	١٢٠
بعض اختياراته التى خالف فيها مذهب الشافعى	١٢٢

رقم الصفحة	الموضوع
١٢٤	ابن السبكي المحدث
١٢٧	، ، المؤرخ
١٣١	، ، النحوى
١٣٢	، ، الأديب
١٣٥	، ، الشاعر
١٣٩	، ، المصلح الاجتماعى
١٤١	موقفه مع السلطات
١٤١	إقامة فرض الجهاد
١٤١	العدل بين الناس
١٤٢	حماية بيت المال
١٤٤	إلقاء مقاليد الأحكام إلى الشرع
١٤٥	قمع أهل البدع والأهواء
١٤٥	شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم مرتد كافر لا تقبل توبته
١٤٧	موقفه مع نظراء الجيش
، ،	الفلاح حر لا يد لأدمي عليه
، ،	الديوان لا شرع له
١٤٩	موقفه مع من يتولون أمراً هل الجرائم
، ،	التجسس على الناس
، ،	من زنا بامرأة زوجها إياها
١٥٠	موقفه مع القضاة
١٥١	موقفه من طوائف العلماء
١٥١	تردد بعض العلماء إلى أبواب السلاطين
١٥٢	تعصب العلماء فى الفروع
١٥٢	التلفيق بين المذاهب

رقم الصفحة

الموضوع

(أعماله العلمية ومناصبه)

١٥٥

الافتاء والتدريس

١٥٧

القضاء والخطابة

(موقفه من خصومه)

١٥٩

تمهيد

١٦١

محنته الأولى

١٦٣

مقامه فى القاهرة

١٦٥

عودته إلى قضاء الشام

١٦٦

المحنة الثانية

١٦٨

المحنة الأخيرة

١٧٣

مؤلفاته وآثاره العلمية

١٧٧

وفاته رحمه الله

١٧٩

الخاتمة

١٨٣

الفهرس